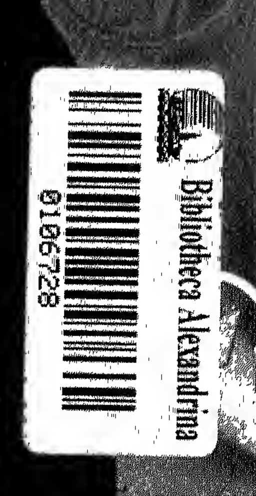
فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

تعرف على أصحاب الجحيم



الشيخ محمد متولى الشعراوى

نتعرف على أصحاب الجحيم

إعداد وتقديم

عادل أبو المعاطى

دار الروضة
للنشر والتوزيع

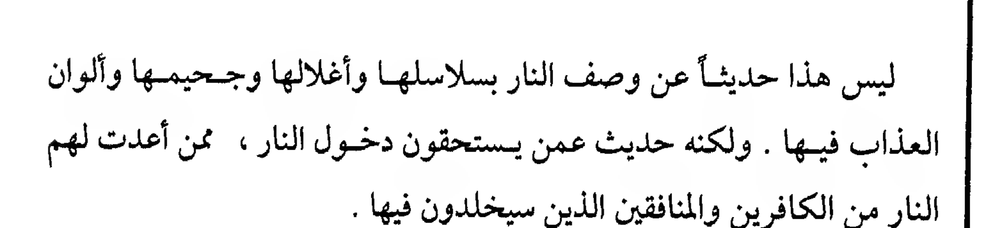
دار الرَّوضة
للنشر والتوزيع
القاهرة : ص ب ٢٢٢٧
يطلب من
مركز توزيع الكتاب الإسلامي
٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر
ت ٥١٢٣٦١١

نافذتك على الفكر الإسلامي العربي والعالمي بما تقدم لك من روائع الكتب التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة في مختلف المجالات
يديرها ويشرف عليها سامي الطرابيشي









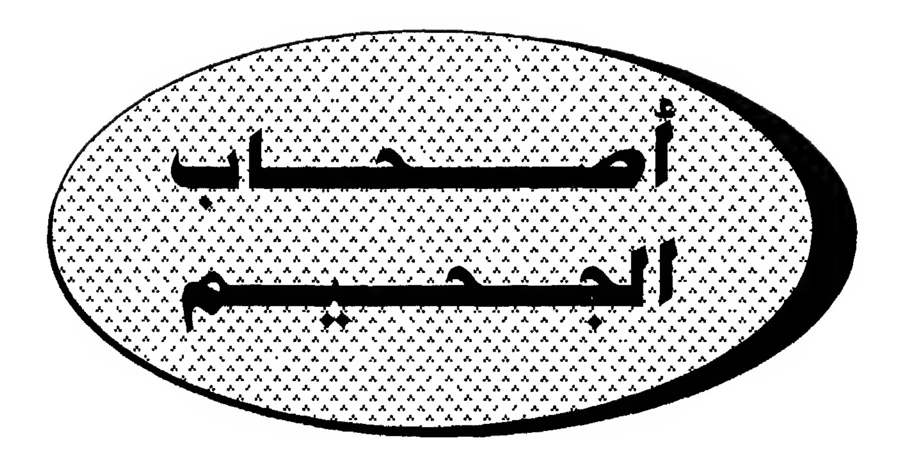
مقدمة

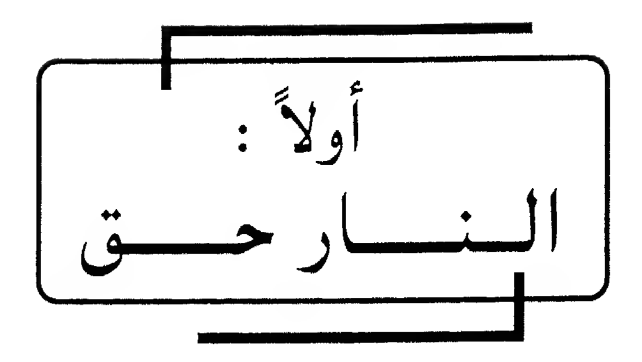
ليس هذا حديثاً عن وصف النار بسلاسلها وأغلالها وجحيمها وألوان العذاب فيها . ولكنه حديث عمن يستحقون دخول النار ، ممن أعدت لهم النار من الكافرين والمنافقين الذين سيخلدون فيها .

وإذا كانت الجنة درجات ، يسكنها أهلها على حسب أعمالهم ودرجاتهم ومقاماتهم ، فإن النار دركات أسفلها تلك الخاصة بالمنافقين الذين هم شر من الكافرين .

وفضيلة الشيخ الشعراوى وإن كان يحدثنا فى هذا الكتاب عن أهل النار من : الساعين فى الأرض فساداً ، والمولِّين الدبر عند الزحف ، وقاتل المؤمن عمداً ، ومن يكنز الذهب والفضة ، فإنه يحدثنا فى ثنايا كلامه بكلام بديع فى وصف النار وعذابها .

نرجو أن ينفعنا الله بعلمه ، ويجعلنا من المترسمين خُطَاه .


أصحاب
الجحيم



أولاً : النار حق

* رؤية الجحيم :

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٦، ٧]

أى : أنكم فى الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين ، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أى : مشاهدة بالعين . وفى هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما : علم اليقين وعين اليقين ، ففى الآخرة سوف يضرب الصراط على جهنم ، ويرى الناس ـ كل الناس ، المؤمن منهم والكافر ـ نار جهنم ، وهم يمرون فوق الصراط ، ويرونها مشتعلة متأججة ، وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها ، يعرف كيف نجاه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح ؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحه ؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب ، وفرحة بالنعم وبالمنعم ، ويقول المؤمن : الحمد لله الذى أنقذنى من النار . وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير ، ودخول الجنة فضل أكبر ، والحق هو القائل :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٧١]

ويَرِدُ الشيء أى : يصل إليه دون أن يدخل فيه [١] ، ويقال : ورد الماء أى :

(١) اختلف الناس فى الورود على أقوال : =

وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه . إذن : فكل منا سوف يرى جهنم ، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه ؛ لأنه أنجاه منها ، ويندم الكافر ؛ لأنه يعذَّب فيها .

وقد ضربت من قبل مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بالقراءة عن مدينة نيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارئ أنها مبنية على عدة جزر ، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ، وهذه القراءة هى علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو يكون ذلك عين يقين ، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعايش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين .

وفى سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة فى سورة الواقعة ، فقال :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾

[الواقعة : ٨٨ ـ ٩٥]

= ١ـ **الورود** : الدخول . عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم .. ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذرالظالمين فيها جثياً » أخرجه الإمام أحمد (٣/٣٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/٥٨٧) وصححه وأقره الذهبى .

٢ـ **الورود** : الممر على الصراط . ويستدل أصحابه بحديث المرور على الصراط .

٣ـ **الورود** : ورود إشراف واطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ، ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ويصار بهم إلى الجنة ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ أى : أشرف عليه لا أنه دخله .

٤ـ **ورود المؤمنين** النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا ، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها .

٥ـ **الورود** : النظر إليها فى القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها من قدر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى ، واحتجوا بحديث ابن عمر : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » .

وقد جمع الإمام القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٠٧) بين هذه الأقوال فقال : ظاهر الورود الدخول ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين ، قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنّا نرد النار ؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رماداً .

* الـزحـزحـة عـن الـنـار :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فما بالك بمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ لقد نال نعمتين .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون؟ هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها؟ فالإنسان ظلوم كفار.

وكلمة «ينظر» إذا جاءت على الإنسان فُهم المراد منها أى : يراك بناظره . وإذا أُسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو ـ سبحانه ـ عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ فى مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وعميد الكلية يقول له : ما رأيك؟ فيقول : فلان طالب يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثانى لا بد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء على علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذى رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت فى الحكم ؛ ولو مكنتنى من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدى الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب فى الامتحان .

انظروا إلى دقة العبارة : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم فى هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثواباً

فى الدنيا فهذا زمن زائل ينتهى ، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون فى الآخرة لكى يكون ثواباً لا ينتهى .

ونعرف ما حدث فى بيعة العقبة الثانية ؛ حينما أخذ رسول الله ﷺ على الأنصار عهوداً ، قالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ ولم يقل لهم ﷺ ستنتصرون أو ستملكون الدنيا ، بل قال : «الجنة» قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فلو وعدهم بأى شىء فى الدنيا لقال له أى واحد فطن منهم : ما أهونها، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : أنا أُحبك قدر الدنيا ، فقال له : وهل أنا تافه عندك لهذه الدرجة ؟

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إياكم أن تفهموا أن جزاء الإيمان يكون فى الدنيا ؛ لأنه لو كان فى الدنيا لكان زائلاً ولكان قليلاً كجزاء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بغير منته وهو الله ، فلا بد أن يكون الجزاء غير منتهٍ وهو الجنة ، فقال: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾ .. وأخذ أهل اللمح من كلمة «توفون» أن هناك مقدمات ؛ لأن معنى «وفيته أجره» أى : أعطيته وبقى له حاجة وأكمل له ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات الإيمان ، ويكفى إشراقة الإيمان فى نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية ؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل فى معركة ، وما دام قد مات فى معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير غنائم ولا أى شىء ، فماذا يكون نصيبه؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة «توفون» فمن نال منها شيئاً فى الدنيا بالنصر ، بالغنائم ، بالزهو الإيمانى على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر ، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون فى الآخرة ، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى يوم القيامة ، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور التى يستحقها العاملون .

ويقول الحق : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا

وما فيها . اقرأوا إن شئتم : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ »[1] .

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناها أنه كان متوقفاً برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار؟ نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة ، ويأتي الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذلك يكون الجزاء بالنار . إذن : فالنار لها جاذبية لأنها ستكون في حالة غيظ .. ولذلك يقول ربنا :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٨]

النار تتميز من الغيظ على الكافرين . وما معنى تميز من الغيظ؟ أما رأيت قِدْراً يفور؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عما في القدر ، وهذا «تميز» أي : تفترق ، والإنسان منا عندما يكون في حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقاقيع غليان القدر إنه يرغي ويزبد أي : اشتد غضبه ، هذه الفقاقيع تحرق من يقف أمامها أو يلمسها ، وهي من شدة الفوران تميز بعضها وانفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولماذا تميز من الغيظ؟ إنها تميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مُسبّحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠]

وذلك مما يدل على أن كلمة : ﴿تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ حقيقة ؛ ولذلك يبين لنا رسول الله ﷺ أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية في الدنيا ، والمعصية في الدنيا هي التي تجذب العصاة ، يقول الرسول ﷺ في ذلك : « مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقعْن فيها وهو يذبّهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدي »[2] انظر إلى التشبيه الجميل ـ حين توقد ناراً في خلاءٍ فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوام والبعوض تأتي على النار ؛ ولذلك يقولون : ربّ نفس عشقت مصرعها .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه البخاري ومسلم من غير هذا الوجه وبدون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور ، إننا نرى ذلك عندما نُشعِل موقداً فى الخلاء فأنت تجد حوله الكثير من هذه الحشرات صرعى ، تلك الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصى يعشق مصرعه ؛ لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار .

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ أى : أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ومجرد الزحزحة عن النارِ ، حتى وإن وقف بينهما لا فى النار ولا فى الجنة ، فهذا حسن ، فما بالك إنْ زحزح عن النار وأُدخل الجنة؟ لقد زال منه عطب وأعطى صالحاً . وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب فى أن النار مضروب على متنها الصراط الذى سنمر عليه ، لماذا؟ حتى يرى المؤمن النار .. وهو ماشٍ على الصراط التى لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها ، فيقول : الحمد لله الذى نجانى من تلك النار .

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ والفوز هو النجاة مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد النجاة مما تكره نعمة ، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلحظ فى «زحزح» أن أحداً غيره قد زحزحه . نعم لأنّ الله تكرم عليه أولاً فى حياته بفيض الإيمان وهو الذى زحزحه عن النار أيضاً .

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران : ١٨٥]

لأنه إذا زُحْزِحَ عن النار ولم يعد فى نار ولا فى جنة فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحزح عن النار وأُدخل الجنة؟ إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا هو السبب فى أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيرينا النار ونمر عليها ، لماذا؟ كى نعرف كيف نجّانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كى نفلح ونتقى النار؟ إن الوسيلة هى اتباع منهج الله الذى جاء به على لسان رسوله .

ويقول الحق سبحانه :

﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام : ١٦]

فكأن من لا يُصرف عنه هذا العذاب هو من ينجذب إلى قوة العذاب ؛ لأن لنار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الذين قُدّر عليهم العذاب . ويقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [سورة الملك : ٦ ، ٧]

والذين يكفرون بالله لهم العذاب الذى يبدأ بسماع شهيق جهنم فى أثناء فورانها . والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهى تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠]

إذن : فقوة العذاب التى جعلها الله مهمة لجهنم هى التى تلح وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين . وسبحانه خلق كل شيء ليؤدى مهمة ، والنار مهمتها أن تمتثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها ؛ لذلك فهى تلح فى طلب الذين سيتلقون العذاب ، ولا تخرج النار أبداً عن أمر الله وقدره ، فإن صرف الحق العذاب عن عبد من العباد فالنار تمتثل لذلك الأمر . ﴿ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ وسبحانه فعال لما يريد ، وهو إن حاسبنا بالعدل فكل منا سيمسه شيء من عذاب جهنم ؛ ولكن رحمة الله هى التى تجعل النار لا تمس المؤمنين ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعفو عن كثير ؛ ولأن للنار شهيقاً ، فهى تستنشق المكتوب عليهم العذاب ، ونعلم أن الشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير . والشهيق فى الحياة يكون للهواء .

والسبب ازدياد سرعة الشهيق عن الزفير أن فى الشهيق مهمة استدامة الحياة الأولى وهى إمداد الجسم بالهواء ، والإنسان ـ كما نعلم ـ لا يصبر على الهواء إلا لأقل مدة ممكنة . ومن رحمة الله أنه لم يُمَلِّك الهواء لأحد . وهذا الشهيق الذى يعطى الحياة فى الأرض يوجد ـ أيضاً ـ فى الآخرة وهو منسوب إلى النار ، إنها تشهق لتبتلع العصاة ، وهى بذلك تؤدى مهمتها الموكولة لها . ونعرف أيضاً

أن النار تؤدى مهمتها بغيظ طبقاً لما قاله الحق سبحانه :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٨]

فهل تؤدى النار مهمتها وهى غير راضية عنها؟ وهل تختلف النار عن كل كائنات الحق التى تؤدى مهمتها بسعادة وانسجام؟ إن النار تَمَيَّز من الغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان ، وللنار مشاعر مثل بقية المخلوقات . وللكون كله مشاعر ؛ فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد محمد ﷺ ؛ فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرح بمقدم الرسول الكريم ﷺ ؛ لأن كل هذه الكائنات مسخرة للإنسان وهى مسبحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتى البشير ليهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهى تفرح بمقدم هذا البشير .

ونعرف أن المكان الذى يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إن كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إن كان الإنسان عاصياً ، ويضج المكان ـ أى مكان ـ بوجود أى عاصٍ فيه . ونرى ذلك واضحاً فى قول الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٥ ـ ٢٩]

والأرض التى كان بها قوم فرعون لها مشاعر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التى ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس ، وهى تغضب وتسخط وتضج بوجود الكافرين بنعمة الله فيها ، ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين ، بينما تبكى السماء والأرض إن فارقها مؤمن ، ولنا فى قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ إيضاح لهذا ؛ فقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه فى الأرض فهو موضع مصلاه .

وفى الحديث : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » [1] .

إذن : فموضع صعود عمل الإنسان فى السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمر فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجود إنسان خشوعاً لله ، ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر ، وكل شىء فى الكون يؤدى مهمته بقانون التسيير والتسخير لا قانون التخيير ، والإنسان ـ فقط ـ هو الذى يحيا بقانون التخيير فى بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية . ولذلك فعندما نرى السجود لله فى القرآن فإننا نسمع قول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨]

إذن : فكل الكائنات تسجد له ما عدا كل أفراد الإنسان ؛ فكثير منه يسجد لله وكثير منه يحق عليه العذاب لأنه لا يطيع الحق . ومن يعص منهج الله غير مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومن يهنه الله بذلك فليس له تكريم أبداً . وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنه من يغضب منه الكون لأنه يعصى الله .

إن اللغة العربية توضح لنا ذلك ؛ فالعرب يقولون : فلان نَبَتْ به الأرض من النَّبْوَة وهى الجفوة والبعد والإعراض .. أى : أن الأرض تكره شخصاً بعينه ؛ لأنه لا انسجام للأرض مع كائن عاصٍ .

ويقول الحق عن الذين يصرف عنهم العذاب من فرط رحمته بعباده لأنهم أطاعوه وكانت معاصيهم تغلبهم فى بعض الأحيان فيتوبون عنها :

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر .

﴿ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الأنعام : ١٦]

ونعلم أن هذا الفوز هو أرقى درجات الفوز ؛ ذلك أن الفوز درجات ؛ فالفوز فى الدنيا كالنجاح أو المال أو غير ذلك هو فوز معرّض لأن يضيع ، وهو عرضة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان ، لكن فوز الآخرة هو الفوز الدائم الذى لا ينتهى .

وهذا هو الفارق بين نعم الدنيا ونعم الآخرة ، والإنسان يتنعم فى الدنيا على قدر تصوره للنعيم ، فنجد الريفى – مثلاً – يتصور النعيم أن تكون له مصطبة أمام داره يجلس عليها ، وعدد من القلل التى تمتلئ بالماء النقى ، فإذا ما انتقل هذا الريفى إلى المدينة فهو يتصور النعيم فى منزل متسع فيه أثاث فاخر وأدوات كهربائية من ثلاجة وغير ذلك ، إذن : فإمكانات النعيم مختلفة على حسب تصور الإنسان ، أما نعيم الآخرة فهو نعيم لا يفوته الإنسان ولا يفوت الإنسان ؛ لأنه نعيم من صنع الخالق الواسع العطاء .. إن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولذلك فالفوز بنعيم الآخرة هو الفوز المبين .

والحق سبحانه يقول عن أبى لهب :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : ١– ٥]

إذن : فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل فى دين الله أبداً .

ويجىء قوله الحق : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر : ٢]

هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل إلى الإسلام . ومجىء سورة المسد من بعد سورة النصر فى الترتيب المصحفى كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبى لهب وزوجه .

وتأتى من بعدها سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

[الإخلاص : ١ـ ٤]

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن: فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧]

عندما ننظر إلى قول الحق : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ ، هنا لا نجد جواباً، مثل ما نجده فى قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته . إن فى كل من هاتين الجملتين جواباً ، لكن فى هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآنى ؛ فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع فى المعنى مذاهبه التى يراها .

وفى حياتنا نجد مجرماً فى بلد من البلاد يستشرى فساده وإجرامه فى سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكّن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فنرى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبّل يد الشرطى حتى لا يضع القيود فى يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلاً : آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدى كل معانى الذلة التى يتخيلها السامع ، إذن : فحذف الجواب دائماً ترييب لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع فى تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة فى إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تخيّل وتصوّر السامعين .

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطى على هذا المجرم ..

فهذا القول يعمم ما يُرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور . وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق «لو» بلا جواب حين قال :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧]

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن عالي البيان ، فصيح الأسلوب ، معجز الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم ؟

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات : ٦٢ ـ ٦٥]

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج هذه الشجرة من النار ، أليس فى ذلك شذوذ؟ ثم تتمادى الصورة .. صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ [الصافات : ٦٥ ، ٦٦]

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . ويَسْخَرُ الذين يتصيدون للقرآن فى أقوالهم : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول؟ وتساءلوا بطنطنة : ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم لملكة اللغة العربية هو الذى يجعلكم لا تفهمون ما فى هذا القول من بلاغة .

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامى «الكاريكاتير» فى العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من

صورة للشيطان ، وستفوز أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الفوز هنا ليس فى الجمال، ولكن الفوز هنا فى مهارة تصوير القبح . وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصور شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التى يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك قوله الحق : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ والذى يحدث لهؤلاء الوقوف على النار لا يأتى خبره هنا ، بل يكتفى الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم فى مثل هذا الموقف ؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار . والجنة ــ كما نعلم من قول رسول الله ﷺ ــ إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقعة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عينيك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمفردك ، ولا يكتفى الحق بذلك بل يخبر رسوله ﷺ أن فى الجنة ما لا يخطر على قلب بشر ، أى : أن فى الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها ؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس فى الأشياء . والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

وهكذا نعلم أن ما فى الجنة من نعيم لا توجد ألفاظ تؤدى كل ما تحمله للمؤمن من معانٍ ، وكذلك نعلم أيضاً أن فى النار عذاباً لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه . ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ لرأينا أمراً مفزعاً مخيفاً مذلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطى ذلك الأثر نفسه الذى جاء به حذف الجواب .

وعندما نقرأ «وُقفوا» نعرف أن فيه بناء وكياناً موجوداً ، وأن هناك من أوقفهم على النار ، وهم كانوا مكذبين فى الدنيا بالنار ، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقّفهم الله على النار ليروا العذاب الذى ينتظرهم ، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشىء ، كذلك يوقفهم الحق على النار التى أنكروها فى

الـدنيا ؛ فقد جاءهم الخبر فى الدنيا ، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق ، فذلك علم يقين ، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة محسة للخبر ، فهذا عين يقين . والمؤمن بإخبار ربه وصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله ، لأنه يصدق ربه ، ولذلك فالإمام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً » ؛ لأنه مصدق بلاغ به .

لكن ماذا عن المكذبين ؟ إن الإنسان يرى علم اليقين فى اليوم الآخر وهو عين يقين ، ويشتـرك فى ذلك المؤمن والكافـر . ولكن الكافـر يرى النار عين اليـقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو «حق اليقين» .

هكذا نعلم أن النار «عين اليقين» يراها المؤمن والكافر ، والنار كـ «حق اليقين» يعاينها ويعذب بها الكافر فقط ، أما المؤمن فى الجنة فيحس «حق اليقين» لأنه يعيش ويسعد بنعيمها . ويصور سبحانه ذلك فى قوله :

﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾

[التكاثر : ٥ ـ ٧]

وجاء حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾

[الواقعة : ٨٨ ـ ٩٥]

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين ؟ لا بد أنهم يخافون أن يعانوا منها عندما تصبح حق اليقين ، لذلك يقولون :

﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٧]

إنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا الإيمان . والتمنى فى بعض صوره هو طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يحب أن يكون ، كقول القائل :

ألا ليتَ الشَّبابَ يَعُودُ يوماً فأُخْبِرهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

أو قول القائل :

لَيْتَ الكواكبَ تَدْنُو لى فَأَنْظِمها عُقودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

وهم قالوا : « يا ليتنا نرد » فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن أيضاً وعداً بعدم التكذيب بآيات الله ، فهل هم قادرون على ذلك ؟

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨]

إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد فى طلبهم المستحيل ؛ لأنهم سيفعلون مثلما فعلوا من قبل ، كفراً ونكراناً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول من فرط الخوف مما أعده الله لهم ؛ بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة « يوم الفاضحة » ؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه فى عنقه ، ويقال له :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤]

فإذا كنا فى الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا؟ ويرى الإنسان مكره يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكأن الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أن تحاسب نفسك . ويفاجأ الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه : الأيدى تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكى إلى أين ذهب بها صاحبها ، فهذه الجوارح التى كانت تنفعل لمراد صاحبها فى الدنيا ، يختلف موقفها فى الآخرة ولا تنفذ فى اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسان المراد .

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦]

مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم الجنود ، فإن أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها ، وبعد انتهاء المعركة يسألهم

القائد الأعلى ، فيقولون سلسلة الأوامر الخاطئة التى أصدرها قائدهم المباشر .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤتمرة بقدرتك عليها دائماً ، إن سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء فى الدنيا . ويأتى يوم القيامة لتنتهى سيطرتك على الأبعاض . وأنت ترى فى الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة الواهب الأعلى ؛ فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة على جارحة أو أكثر من جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هى أمر موهوب من الله . وقول الحق سبحانه عن الكافرين : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ يفضح تدليسهم فى الحياة الدنيا ، ثم يجيب الله على تمنيهم السابق الملىء بالذلة والمسكنة ، التمنى بالعودة إلى الدنيا ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

فهم كاذبون فى الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٩]

إنهم لم يأخذوا فى أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكون منظم مرتب محكم التكوين ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظام والإحكام والترتيب موجود فى علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ونعلم أن هناك صفات يشترك فى كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدهم ؛ فالملحد إن سرق من زميله ، ألا يعاقب؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه ، وفى كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جزاء بإحسان . والإيمان لا يمنع أن يصطلح الناس على شىء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلجئهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب .

إننا نجد أن تجريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطرى وضرورى للإنسان ؛ فهم يجرمون أفعال السوء بعد أن تعضهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوى جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمى كرامة الإنسان.

ويوم القيامة يقفون فى صَـغَار وفى اضطرار ليروا ما فعلوا :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨]

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيفعلون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول فى اليوم الآخر إلا لأنهم مقهورون . وكانوا من قبل يقولون :

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٩]

ففى دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هى الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا فى الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوى . والقوى إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه ، ولذلك نجد القاضى المؤمن يقول دائماً : لئن عمّيتم على قضاء الأرض ، فلا تعمّوا على قضاء السماء .

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض « الحياة الدنيا » وهى فى حقيقتها دنيا ، وما داموا قد حكموا وعرفوا أنها «دنيا» فلا بد أن يقابلها حياة عليا. إنّ كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جند من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين ؟

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٠]

هم ـ إذن ـ قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا ؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقفوا على الله؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف ـ من قبل ـ الجواب عندما أوقفهم على النار ؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى .. إنه ارتقاء فى الهول .

وهكذا نرى التبكيت لهم فى قول الحق لهم : ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ ؟ إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار : ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ ؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : «بلى» لأن الأمر لا يحتاج ـ إذن ـ إلى مكابرة . و«بلى» حرف يجعل النفى إثباتاً .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفى حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب ويصدر حكم الحق : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهكذا يذوقون العذاب الذى كانوا به يكذبون . وذوْق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾

[الأنعام : ٣١]

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال، فهذا يعنى الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال .

إذن : فقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر . وكل إنسان منا يريد أن يثمّر عمله ويحاول أن يعطى قليلاً ليأخذ كثيراً .

وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقتطع مقدار كيلتين من أرادب القمح التى فى مخزنه ليبذرها فى الأرض بعد أن تحرث . وهذا يعنى النقص القليل فى مخزن هذا الفلاح ، ولكنه نقص لزيادة قادمة ؛ فعندما وضع البذور فى الأرض المحروثة نجد الحق سبحانه وتعالى ينبتها له أضعافاً مضاعفة . والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل

من أجل أن يأخذ الآجل الكبير .

وهذه أصول حركة العاقل الذى يزن خطواته ، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته ، فعليه أن يبذل الجهد . أما إن كانت الحركة لا تأتى له إلا بالقليل فلن يتحرك . ولأن العاقل لا يحب الخسارة نجده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذى سيأتى إليه . أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم ، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظنونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها ؛ فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال ، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره فى الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود . إنه فانٍ وذاهب وميِّت ، ولكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه ، أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبِّب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية ؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام : ٣١]

ونعلم أن «حتى» هى جسر بين أمرين ؛ فالأمر الذى نريد أن نصل إليه هو غاية، كقول إنسان ما : « سرت حتى وصلت المنزل » ، والمنزل هنا هو غاية السير .

والذين كفروا كان كفرهم وتكذيبهم موصِّلاً إلى الخسران ، فمجىء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصول إلى أول الخسران ؛ لأن خسرانهم لا ينتهى من فور مجىء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم . فهم يفاجأون بوقوع ما كانوا يكذبون به ، ويعلمون جيداً أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

وهنا تبدأ الحسرة التى لا يقدرون على كتمانها ، ولذلك يقولون : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ .. أى : على تفريطنا وإسرافنا فى أمرنا وذلك فى أثناء وجودنا

فى الدنيا . وبذلك نعرف أن عدم التفريط فى الدنيا والأخذ بالأسباب فيها أمر غير مذموم ، ولكن التفريط فى أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المذموم ؛ لأنه إضاعة للوقت وإفساد فى الأرض .

إننى أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع فى الدنيا أمر مذموم فى حد ذاته ، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هى موضوع الدين ؛ لأن الدنيا هى موضوع الدين أيضاً ، والجزاء فى الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة فى الدنيا ؛ فمن يحسن السلوك فى الدنيا يَنَلْ ثواب الآخرة ومن يسئ يَنَلْ عقاب الآخرة . ولذلك لا يصح على الإطلاق أن نقارن الدين بالدنيا .

إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون : « دين ودنيا » فالدين ليس مقابلاً للدنيا . بل الدنيا هى موضوع الدين . أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد فى زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما فى الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات .

نقول : إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذى يبنى الحضارات ويُثاب المصلح فى الدنيا يوم الجزاء ، ولنا أن نعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً ؛ يشمل الدنيا موضوعاً ، والآخرة جزاءً . والذين يفتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة : ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ . والأوزار المعنوية فى الدنيا ـ وهى الذنوب ـ ستتجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفضيحة علنية ؛ فمن سرق غنمة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره ، ومن سرق بقرة يبعث يوم القيامة وهو يحملها على كتفه وهى تخور ، وكذلك من سرق طناً من حديد عمارة سيبعث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره ، وكذلك يفضحه الله يوم القيامة .

وهكذا يكون موقف أهل النار ؛ لذلك يقول الحق : ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ونعلم أنهم لا يحملون أوزاراً فقط بل يحملون من أوزار الذين اتخذهم قدوة له ، فهذا وزر الإضلال ويعرفون ـ جميعاً ـ أن حمل الوزر يتجسد فى الإحساس

بعبثه ؛ فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم ، ونعلم أن نتيجة كل عمل هى الهدف منه ، فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله ، ومن أساء فسيجد عمله السىّء .

إننا نرى الأمثلة العملية لذلك فى حياتنا اليومية ؛ فهذان شقيقان يعملان بالزراعة ، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلاً : الأول منهما يقوم مع طلوع الفجر ليعتنى بأرضه ويحرثها ويحمل إليها السباخ ويعتنى بمواقيت الرى ويسعى إلى يوم الحصاد بجد واهتمام . والآخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون ، ولا يقوم من النوم إلا فى منتصف النهار ، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد . ثم يأتى يوم الحصاد فينال الأول ناتج اجتهاده محصولاً وفيراً ، وينال الآخر محصولاً قليلاً بالإضافة إلى الحسرة التى يتجرعها بسبب إهماله وكسله . إذن : فالعاقل هو من يدرس ما تعطيه حركته فى الحياة . ويختار نوعية الحركة فى الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة ، واطمئنان النفس فى الدنيا والآخرة .

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يحب نفسه ، ومن قام فى بكرة الفجر إلى عمله يحب نفسه أيضاً ، ولكنّ هناك فارقاً بين حب أحمق عقباه الندم ، وحب أعمق لمعنى الحياة وعقباه الجزاء الوافر .

* * * * *

ثانياً :
أهل الخلود فى النار

* ناس خلقوا للنار :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وذرأ ، بمعنى بث ونشر ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى فى أول سورة النساء ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ .

كما يقول الحق أيضاً : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ .

ونعرف أن فى الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهى كل ما عدا الإنس والجن ؛ لأن كلا منهما فى سلك الاختيار ، وهم من يقول عنهم ربنا فى سورة الرحمن : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ .

وذرأنا معناها بثثنا ونشرنا وكثّرنا ، وكلمة كثير لا تعنى أن المقابل قليل ، فقد يكون الشىء كثيراً ومقابله أيضاً كثير ، والحق سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ [الحج : ١٨]

إذن : كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه ، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط ، حيث يقول الحق فى ذات الآية :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨]

أى : هناك كثير يسجدون ويخضعون لله . ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب . وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ .

فقد يثور فى الأذهان سؤال هو : هل أنت خالقهم يا رب لجهنم . ماذا يستطيعون إذن؟ ولا شيء فى قدرتهم ما دمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا . ولنلفت الأنظار إلى أن فى اللغة ما يسمى « لام العاقبة» ، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده ؛ لأن القصد فى الخلق هو العبادة مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]

ومعنى العبادة طاعة الأمر ، والكف عن المنهى عنه ، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل ، فالعبادة ـ إذن ـ تستدعى وجود طائع ووجود عاصٍ ، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ـ وننزه سبحانه وتعالى : يأتى لك من يروى لمحة من سيرة إنسان ويقول لك : لماذا يقف منك هذا الموقف العدائى ، أليس هو الذى أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه : « زرعته ليقلعنى » . هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك ؟ لا . ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا .

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار . لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه ، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة ، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه « لام العاقبة » ، أى : ما صار إليه الأمر غير مرادك منه ، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ [القصص : ٧، ٨]

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً ؟ لا ، لأن زوجة فرعون قالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ [القصص : ٩]

فقد كانت علة الالتقاط ـ إذن ـ هى أن يكون قرة عين ، لكنه صار عدواً فى النهاية ، وهذا اسمه ـ كما قلت ـ لام العاقبة .

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار ، فى قوله الحق : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ .

لأن علة الخلق فى الأصل هى العبادة ، والعبادة تقتضى طائعاً وعاصياً ، فالذى يطيع يدخل الجنة ، والذى يعصى يدخل النار ، ولله المثل الأعلى ، أذكّركم بالمثل الذى ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإذا شئت أقول لك عليهم وأحددهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم فى إجابات الطلبة ، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه ، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ يعنى أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، وهم من يعرضون عن منهجنا ، ثم يأتى الحق بالحيثيات لذلك وهى أولاً : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وثانياً : ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وثالثاً : ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ وما دامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك ما دامت الآذان

مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون؟ ونقول : لا ، لم يخلقهم الله للعذاب ، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم ، وصارت عقولهم لا تفكر فى شىء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة ، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها ، وكذلك الآذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية ، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن .. أن فقه القلب هو فهم القضايا التى تنتهى إليها الإدراكات . ونعلم أن الإدراكات تأتى بواسطة الحواس الخمس ، فنحن نعرف باللمس أن الحرير ناعم ، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم ، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق .

إذن : لكل وسيلة إدراك ، وهى من المحسَّات ، وبعد أن تتكون المحسَّات يمتلك الإنسان خميرة علمية فى قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلَّماً بها .

وكلنا يعرف أن النار مُحرقة ؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه ، فيعرف أن النار محرقة ، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى . إذن : فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتها الحواس الظاهرة ، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياسِ وزن الأشياء بالحمل . وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العَضَل ؛ لأنك حين تحمل شيئاً قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً .

* * * * *

* دركات النار وأصحابها :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾

[النساء : ١٤٥]

لنر دقة التربية الإيمانية ؛ فلم يأت الحق بفصل فى كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأتى بلمحة عن المنافقين ثم يأتى بلقطة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينفِّر السامع من وضع المنافق ويحببه فى صفات المؤمن ، وهنا يقول : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ . والدرك مرة تنطق بسكون الراء ، وتنطق مرة بفتح الراء ، والدرك دائماً فى نزول . والأثر الصالح يميز لنا ذلك بالقول :

« النار دركات كما أن الجنة درجات » [١] .

فالنزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفى عصرنا نضع مستوى سطح البحر كمقياس ؛ لأن اليابسة متعرجة ، أما البحر فهو مستطرق .

ونستخدم فى الأمر الدقيق ـ أيضاً ـ ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق تكشف لنا عمل المقاول الذى رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أم لا ؟ ونحن نلقى دلواً من المياه فى الحمام بعد تبليطه حتى ينكشف جودة أو رداءة عمل العامل ، إذن : هناك شىء يفضح شيئاً آخر . والقول المصرى الشائع : « إن الذى يقوم بعمل المحارة هو الذى يكشف عامل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو ؛ فعامل المحارة مضطر أن يسد الفجوات والميول حتى يستوى سطح الحائط .. والذى يكشف جودة عامل المحارة هو عامل الطلاء ؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملأ المناطق غير المستوية فى الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلاً . والذى يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هى أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذى يريد

(١) تفسير الإمام ابن كثير .

أن يغش هو الذى يسرع بتسليم البناء ؛ لأن الغبار الذى يوجد فى الجو يمشى فى خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به ، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مردُّه إلى الله حتى يصل الخلق جميعاً إلى الحق سبحانه مفضوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحاً ، فهؤلاء يسترهم الله بعملهم الصالح .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التى لا ثبات لها على رأى ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذى يعيشون فيه فقال عنهم :

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾ [النساء : ١٤٣]

والذبذبة لون من أرجحة الشخصية التى لا يوجد لها مقوم ذاتى . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوّه ، يوضح : أن جزائى لهم حق يناسب ما فعلوه .

وقد هيأ الحق الأذهان ليجعلها مستعدة لقبول الحكم الذى أنزله عليهم حتى لا تأخذ الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكماً فهو يضمن بقيوميته ووحدانيته ألا يوجد منازع له فى الحكم . وكان من الممكن أن يقول : سأجعله فى الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تنتشل المنافق ؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : ﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ أى : أنه حكم مشمول بالنفاذ ، ولن يعدّله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك فى الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما فى الآخرة فلا مِلك لأحد ولا مُلك لأحد .

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦]

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المنافقين أن يعدلوا رأيهم فى المسألة وأن يعلنوا إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه ، إنه ـ سبحانه ـ أتاح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها فلم يغلق الباب دونهم بل قال :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٦]

إذن : فمن الممكن أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن أحد أن الحكم هنا نهائى ، وذلك حتى لا يفقد الإنسان نفسه ويتورط فى مزيد من الشرور ؛ لذلك قال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا ﴾ أى : تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويُخلص لله نيّةً وعملاً ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ . إذن : فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هى التوبة ، وإصلاح ما أفسد ، والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله .

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، وألا يترك المنافق الفساد الذى صنعه نفاقه بل عليه أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق . الاعتصام بالله كيف يكون ؟

لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين .. أى : أن نفس المنافق تطمئن إلى هؤلاء الكافرين فيفزع إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم ؛ لذلك يوضح الله : انزعوا هذه الفكرة من رءوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده لأنه لا يُجير أحد على الله ، واجعلوا العزة لله والمرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذى يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين الإيمانى بالله ، لكن الحق يقول : ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ فلماذا أكد على الإخلاص هنا؟ لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولاً . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدى ، مثال ذلك : العين تذنب حين تعتدى على محارم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرّض بالسّبّ أو الشتم للناس . إذن : فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور . إذن : فقوله الحق : ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص فى التوبة عن النفاق ، والإخلاص محله القلب .

فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا فى النفاق . وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكأن الأصل فى التنعيم وفى نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين . ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الجزاء من جنس العمل . وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين ظواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظاهرياً وشكلياً من المسلمين ، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندما تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين لله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطى سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء : ١٥١]

و ﴿ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك؟ نعم . فالذى لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذى يبلّغه . أما الذى جاءه رسول وله صلة إيمانية به ؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحى ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظيع مؤكد ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ .

ونلحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يعزلهم عن الحكم والجزاء الذى ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم فى النص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوّفه . ويقول رسول الله ﷺ : « إن الجنّة

عرضت عليّ ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت » [1] .

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول ﷺ ، ولو شاء الرسول أن يأتى المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فإياكم أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعيماً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون ولهم مكان فى الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن فى النار . فيأتى المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن فى الجنة التى سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[المؤمنون : ١٠ ، ١١]

فسبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذى آمن ومن الذى كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة ، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذى يأتى إليه من البشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أعد لكل منهم مكاناً فى الجنة ، أو أن يكون كافراً ، فأعد لكل منهم مكاناً فى النار . ونجد السؤال فى الآخرة للنار :

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق : ٣٠]

فالنار تطلب المزيد للأماكن التى كانت معدّة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وفرّق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويأتى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقى .

والمجىء بالمقابلات أدعى لرسوخها فى الذهن . مثال ذلك : عندما ينظر مدير المدرسة إلى شابين ، كل منهما فى الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثانى قد خاب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ، وأحمد .

* الكـافـرون والظـالمـون :

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ [النساء : ١٦٨ ، ١٦٩]

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ والكفر هو ستر الوجود الأعلى ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشرى لا يؤدى لهم متاعاً ولا سعادة فى حياتهم الدنيا ، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذى كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذى يأتى به الله . إنه بذلك قد ضل ضلالاً بعيداً . وسبحانه القائل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨]

والذى يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكاً ضيقة شديدة . ولا يظنن ظان أن الذى يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويعيش فيه ولا ينفك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه .

وقد يقول قائل : لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم . فمن هو الظالم ومن هو المظلوم؟ كل واحد منهم الظالم ، وكل واحد منهم المظلوم ؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة ، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات ، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم .

وفى حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة لملكة الشهوات أن تظلم ملكة القيم . والإسلام إنما جاء ليوازى بين الملكات لتتساند فى النفس البشرية ، فلا يطغى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٨ ، ١٦٩]

هذا هو حكم الحق فى الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم ، لن ينالوا مغفرة الله وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً .

* * * *

* تبـديل جـلود الكـافـرين فى الـنار :

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦]

و ﴿ نُصْلِيهِمْ ﴾ من الاصطلاء ، قد يقول قائل : ما دام يُصْلِى النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهى إلى عدم ، وحين ينتهى إلى عدم إذن فلا يوجد ألم ! ونقول : لتنتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا الأمر : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ .. إذن : فالعذاب ليس كنار الدنيا ، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهى المسألة . أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدى دائم مكرر ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ .. فإذا ما حرّقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتى ، أهى عين الأولى أم غيرها ؟ وحتى أوضح ذلك : أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً ، ثم تقول : أنا صنعت من الخاتم خاتماً آخر ، فالمادة واحدة أيضاً ، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء ؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد «دُمّل» يتعبه ولا يقدر على ألمه .. وبعد ذلك يغفل فينام ، بمجرد أن ينام فلا ألم . لكن عندما يستيقظ يتألم من جديد .

إذن : فالألم ليس للعضو بل للنفس الواعية ، بدليل أننا عندما ارتقينا فى الطب ، قلنا إن النفس الواعية نستطيع أن نخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به ، ويفتح «الدُّمّل» بالمشرط ولا يحس صاحبه بأى ألم . وهكذا نجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب ، إنما هى موصلة للمعذب ، والمعذّب هو النفس الواعية .. بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة .. تشهد الجلود والجوارح ، وستكون آلة لتوصيل العذاب .. ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب .

إنه نظام إلهى فلا تتعجبوا من القرآن ، فإن العلم كلّما تقدم هدانا إلى شىء من آيات الله فى الكون . أنتم ـ الآن ـ تخدرون النفس الواعية وتشقّون الجسد بالمشارط كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم ، وعرفتم أن الألم ليس للعضو ، إنما الألم للنفس الواعية ، إذن : فكل الجوارح هى آلات توصّل الألم للنفس الواعية ، وتكون مسرورة ؛ لأن النفس الواعية تعذب ، وهذه يشبهونها ـ مثلاً ـ بواحد عنده «حكة» فى جلده ، فيهرش ، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذاً .

إذن : فقوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ أى : أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية ، وهكذا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ .

* * * *

* جزاء الكافرين النار :

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦]

ويبين المولى فى هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة ، وكأن الحق يغرى الكافر بأن يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان ، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة ؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [المائدة : ١٠]

وحين نسمع قوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما الآخر ؛ كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها فى اشتياق لهم . وللجحيم يوم القيامة عملان ؛ العمل الأول : الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى : لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠]

وحين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦]

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل ، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة ، ومصداق الأحداث يؤكد أن كلّ ما يجىء به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك ؟ ولم يدخروا أموالهم ؛ وقد نصر الله دينه ؟

إذن : هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء . وحين يأتى القرآن الكريم بقول الله تعالى : ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ﴾ أى : أن الإنفاق سيكون فى المستقبل ، والاستقبال له مرحلتان : استقبال قريب ، واستقبال بعيد . فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ﴾ ، وأما إن كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها ، مثلما قال القرآن أيضاً :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

[البقرة : ١٤٢]

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وجهراً من الصحابة بالخبر ، وأعلمهم القرآن الكريم أيضاً ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذى صار من بعد ذلك خبراً يروى دليل افتقادهم لصفاء الفطرة ؛ لذلك تجىء لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم . وينهى سبحانه وتعالى هذه الآية فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦]

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التى تحدث للكفار من عذاب عظيم فى جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا فى جهنم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٧]

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التى تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هى أمر مراد من الله تعالى : لأن الزلزلة التى تحدث ، حتى لمن آمن ، إنما هى تصفية

لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث فى الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس فى ليلة؟! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبى بكر يقول : إن كان قد قال فقد صدق . إن الثابت والقوى إيمانه يصدق ، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتميز الخبيث من الطيب ، وتجمع الخبيث بعضه إلى بعض ليصير ركاماً ثم يضعهم الله فى النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص ، مثلما تضع الحديد فى النار لتستخرج منه الخبث ويصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوى إيمانهم ؛ لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث فى المجال الرياضى ، فحملة الأثقال ـ على سبيل المثال ـ يدخلون فى مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذى يكون مؤهلاً لأن يدخل المباريات الدولية ، ليبقى الأقوى .

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٧]

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالاً لأحداث تميز الخبيث من الطيب ، فالناس فى الأحوال العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم ؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا يواجهون خطراً ؛ ادّعوا الشجاعة والكرم والشهامة ، وادّعوا الإيمان القوى المستعد لأى تضحية فى سبيل الله ، فإذا جاءت الأحداث فهى الاختبار الحقيقى لما فى القلوب . فقد يقول إنسان لصديقه : أنا ومالى لك . وإذا ما أصابت هذه الصديق كارثة ، يتهرب منه . فما الذى يحدد ـ إذن ـ صدق الحديث عن النفس؟ إنها الأحداث . وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث ، وزال الطلاء عن ذوى العقيدة الهشة ؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة . وحين يميز الله ـ

سبحانه ـ الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث . والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع متعددة ، فهذا خبيث في ناحية ، وذلك خبيث في ناحية أخرى ، وثالث خبيث في ناحية ثالثة ، وغيرهم في ناحية رابعة ، وخامسة إلى ما شاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه في النار جميعاً.

وفي قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠]

نجد أنه قد حذف جواب «لو» والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً ، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يقتل الكفار في المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب ، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية ؟ كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠]

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه ، فإذا أدار وجهه ليتقي الضرب ، يضربونه على ظهره ، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة ؛ فالمقبل عليهم من المؤمنين يضربونه على وجهه ، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره وعلى رأسه .

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين . ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة . أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة . ويقال : إن الملائكة معهم مقامع من حديد . أي : قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم . ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠]

إذن : فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جداً ولكن هذا الضرب رغم قسوته ، والشرر الذى يخرج منه لا ينجيهم فى الآخرة من عذاب الحريق .

ولذلك أقبل صحابى على رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله ، لقد رأيت فى ظهر أبى جهل مثل شراك النعل ، أى : علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك ضرب الملائكة ، وجاء صحابى آخر وقال : يا رسول الله ، لقد هممت بأن أقتل فلاناً فتوجهت إليه بسيفى ، وقبل أن يصل سيفى إلى رقبته رأيت رأسه قد طارت من فوق جسده . فقال له رسول الله ﷺ : سبقك إليه الـمَـلَـك . وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

[الأنفال : ١٢]

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾

[الأنفال : ٥٠]

أى : أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب ، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً. فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُخذَ وعُذِّب ربما تحمّل العذاب بجلد ، ولكنّه إذا ضُرب أمام الناس كان ذلك أشدَّ إهانة له ، فإذا كان الضرب من الذى وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر .

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار ، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة ، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله ، ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد فى الأرض .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥١]

وألقى الحق فى قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبى سفيان : إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل ، وقادم إليكم فى حمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه؟ ألقى الله الرعب فى قلوبهم وفرُّوا .

وكلمة «سنلقى» مأخوذة من «الإلقاء» وهو لا يكون إلا لمادة وعين . ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فألقى الألواح » ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي ﴾ [الأعراف : ١٥٠]

إنه أمر مادى ... ونحن نقول : ألقى الحجر . الحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾

[الشعراء : ٤٤]

إنها حبال ، أى : أمر مادى .. وسبحانه وتعالى يقول عن الوحى لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧]

فالإلقاء أمر مادى ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعاً ، فقال : أنا سأجمع الرعب وأضعه فى القلب ، ويكون عمله ماديًا . فإذا ما استقر الرعب فى القلب جاء الخور ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلاً ، فيقول : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ فكأنه مثّل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوى وهو التخوف من كل شيء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه فى القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان .

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله . إنه هنا يأتى بـ « نون العظمة » ، « سنلقى » ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتى بـ « نون العظمة » كقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ « نون العظمة » ؛ لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة ، وننزله بعلم وننزله بسمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، وننزله ببسط ، فقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ فكأن نون العظمة تأتى هنا ، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : « إننى أنا الله » . لم يقل : إننا ، ولكن فى الإنزال يقول :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١]

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ؛ فـ « نون العظمة » تأتى فيما يكون من شأنه حدث يُفعل ؛ وهذا الحدث الذى يُفعل يحتاج لصفات كثيرة ، لذلك قلنا ساعة تبتدئ أىَّ عمل تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » لماذا؟ لأن العمل الذى ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله ، ويحتاج إلى حكمة ، أى : أنه يحتاج إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذى يُقْدِرك ؛ وباسم العليم الذى يعلّمك ، وباسم الحكيم الذى يحكمك . وكل هذه الصفات ستتكاتف فى إبراز العمل كى يرحمك حتى فى الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها التى يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قل : « باسم الله » ، وهى تضم كل صفات الكمال .

إذن : فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت «نون العظمة» التى نسميها «نون الجمع» نجد أننا نقول : «نحن» للجماعة ، أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك نلاحظها حتى فى قانون البشر . ألم يقولوا فى الملكية : « نحن الملك » ، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة . إنما هى « نون العظمة » ، العظمة الجامعة

لكل صفات الكمال التى يتطلبها أى فعل من الأفعال ، لذلك قال سبحانه :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن : فتأتى نون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بإلقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقى فى قلوبهم الرعب ، لماذا؟ « بما أشركوا » . إن الإشراك بالله هو الذى جاء لهم بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة ـ كما يدّعون ـ لقالوا لتلك الآلهة : رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع ، بل ضره أقرب من نفعه .

﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة « السين واللام والطاء » ونقول : فلان تسلط على فلان ، أى : أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سليط اللسان ، أى : قادر على أن يسب ، إذن : فالسلطة هى : القهر ، والقوة التى ترغم على الفعل ، وفى المعنويات هى الحجة والبرهان . والمؤمنون دائماً ذوو سلطان من الله ؛ لأنهم إن انتصروا مادياً فذلك سلطان القهر ، وإن انهزموا مادياً فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ ولذلك قلنا سابقاً : إن إبليس يأتى يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم : ٢٢]

وقلنا : إن السلطان نوعان : إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ، فمرة يأتى السلطان بمعنى : قوة تقهرك على أن تفعل الفعل

وأنت مرغم . إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل ، فيأتي الشيطان ليقر على نفسه في الآخرة ويقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي : ليس معي قوة تقهركم على المعصية ، وليس معي دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن؟ قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ . أي : أنكم أطعتموني واستجبتم لدعوتي بلا سلطان قوة أقهركم به على شيء ، ولا سلطان دليل أقنعكم به .

وينهي الحق الآية بقوله : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ أي : أن المرجع الذي يأوون إليه هو النار ، والمأوى هو الموضع الذي ترجع أنت إليه. وكأن في هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقيه على النار فهو ـ أي : الكافر ـ مأواه ومثواه الذي يرجع إليه هو النار . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق في بعض الأساليب : ﴿ وإليه تَرجعون ﴾ وقوله : ﴿ وإليه تُرجعون ﴾ و ﴿ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ .. أي : مثوى لا مفر بعده أبداً ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذي سيبقى خلوداً للظالمين هو النار وهو بئس المثوى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾ [النساء : ٥٥]

وقوله سبحانه : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ ﴾ . والمقصود الإيمان بما جاء في منهج إبراهيم والرسل الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك ، أو «منهم» أي: من أهل الكتاب من آمن برسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار مثلاً ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أي : أن منهم من كفر بمنهج الله ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾ فكأن نتيجة الصدّ عن المنهج أنه لا يأتي بعده إلا العذاب بجهنم ليصلوا بنارها ، وتكون مسعرة عليهم جزاء على ما فعلوا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ﴾ [النساء : ٤٨]

هذه من أرجى الآيات فى كتاب الله ، ولـذلك فحـينما سئل رسـول الله ﷺ : ما موجبات الإيمان؟ أى : ما الذى يعطينا الإيمان ؟ فقال ﷺ : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وعن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »** (1) .

ونحن نقـول : إن من يشرك بالله فـهو يرتكب الخيانة العقـدية العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القـوانين الوضـعية ، وإن كـانت القـوانين الوضـعيـة ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً. هب أن جماعة قاموا بحركة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة فى نفع خاص له ، وواحد آخر استغل الحركة فى أن تكون له لا للآخر ، أى : ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى ، أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ولكنّه يظلم الناس فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه وليس على الخيانة العظمى . إذن : ففى قانون البشر أيضاً خيانة عظمى ، وفيه انحراف وهو الذى لا يتعرض للسيادة ، لكن أى حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه .

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ؛ فأنت تدخل حصن الأمان ، ولـذلك يقـول رسـول الله ﷺ فى الحديث الشريف :

« أشهد الا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يـلقى الله بهما عبد غير شـاك منهما إلا دخل الجنة » (2) .

وأبو ذر عندما قـال للـنبى ﷺ فى محاورة بينهما حول هذه الآية ، قـال لـه : « مـا من عبـد قال لا إله إلا الله ثم مـات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن

(١ ، ٢) رواه مسلم .

زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق (ثلاثا) ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر » .

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله ، فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبى ذر ؛ هل هذه أحزنت أبا ذر؟ لا ، لم تحزنه ، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبى ذر ، وهو مسرور ، لماذا؟ لأنها فتحت باب رحمة الحق ، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها ؟ فلا بد أن يكون لها تمييز .

* عدم قبول الفداء ممن كفر :

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٦]

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والقصاص والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقى الله ونبتغى إليه الوسيلة ونجاهد فى سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتى لنا الحق بالمقابل ، فالعقاب الذى جاء من قبل كقصاص وقتل هو عقاب دنيوى . ولكن ما سيأتى فى الآخرة أدهى وأمرّ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٦]

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التى تتكبر فى الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالجبروت، فماذا عن موقفهم يوم القيامة ؟ قد أقمتم الجبروت بقوتكم على غيركم ، وها هى ذى القُوّة تضيع وتفلت . لقد كانت القوة تعيش معكم فى الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تَضِنّ عليكم سُنن الله أن ترتقوا ، وسبحانه قد خلق السُّنَن ومن يبحث فى أسباب الله ، ينلْ نتيجة ما بذل من جهد، لكن ها هو ذا

يوم القيامة ، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قـوّتكم لم تكن إلا عطاءً من الله . ها أنتم أولاء أمام المشهد الحيّ ، فلو أن ما في الدنيا جميعاً معكم وحتى ولو كان ضعف ما في الدنيا وتريدون أن تقدّموه فدية لكم من عذاب جهنم فالله لا يتقبله ، وتلك قمّة الخزى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً ، ولكن هى فى منتهى الجدّ . وعلى الإنسان أن يقدّر العقوبة قبل أن يستلذ بالجريمة . والذى يجعل الناس تَستشرى فى الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو قارن الإنسان ـ قبل أن يسرف على نفسه ـ العقوبة بالجريمة ؛ لما ارتكبها . وكذلك الذى يكسل عن الطاعة ؛ لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليها .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نفترض أن إنساناً فى صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح ، واستدلّ على التفاح بأن رأى تفاحة عطبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك تهاجمه الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن فى الشجرة ثماراً . ولا بد لى من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة.

وأيضاً : الطالب المجتهد الذى يتغلب على النعاس ويتوضأ ويُصلّى ويخرج إلى مدرسته فى برد الشتاء ليحصل الدروس ، ويعود إلى المنزل لتقدّم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدرس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب فى سبيل التعلّم صار سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يقم مبكراً إلى المدرسة، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع فى الطرقات مع أمثاله ؛ يكون فى مثل هذه الحالة غير مُقدّر للنتيجة التى تقوده إليها الصّعلكة . والعيب فى البشر أنهم يعزلون العمل عن نتيجته ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة عن ثوابها . إنّنا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد فى طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين فى الدنيا وهم فى نار الآخرة ، هم بطشوا فى الدنيا ونهبوا ، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما فى الدنيا ـ على الرغم من أنّ هذا مستحيل ـ وفوق ذلك أخذ مثل ما في الدنيا معه ويرى أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه ﴿ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وتلك هى قمة الخزى التى يجب أن يبتعد عنها الإنسان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

[المائدة : ٣٧]

وكلما مَسَّهم لفحُ النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادة الخروج من النار . لا بد ـ إذن ـ أن لحظة لفحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ... ﴾ [الكهف : ٢٩]

هذا القول يُوحى أولاً بأن رحمةً ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتى بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسده :

﴿ ... يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف : ٢٩]

وهذه قمة الهول . وهناك فرق بين الابتداء المُطْمِع والانتهاء المُوئِس .

مثال ذلك : السجين العطشان الذى يطلب كوب ماء . ويستطيع السجّان أن يقول له : لا . ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المطمع والانتهاء الموئس . وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء : ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ [آل عمران : ٢١]

وتثير البُشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هى :
﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : ٢١]

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم المؤلم بعد الرجاء المطمع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾
[المائدة : ٣٧]

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف : ٢٩]

أى : أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعى الإغاثة ، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقذهم ولكن بما يزيد عذابهم .

وساعة يسمعون « يغاثوا » تنفرج أساريرهم وتسكن وتطمئن نفوسهم ، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماعهم : ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ ، إذن : فكلمة «مثوبة» تأتى لهم بشىء من الانبساط يتلوه العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦]

أى : أنهم لو طبقوا التوراة والإنجيل دون تحريف ، وآمنوا بالقرآن لكان خيراً لهم. والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع وهو القرآن الكريم ، وأراد لهم الحق بالإيمان بما جاء فى التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله ﷺ ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل ـ من قبل تحريفهما ـ إنما يقود إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزله الله إليه . واليهود ـ كما عرفنا ـ هم الذين توعدوا العرب بمجىء رسول الله ، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبد الله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد كانوا ـ أهل كتاب ـ يملكون المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن وهو الإيمان بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح ؛ لأن فيهما نعت رسول الله ﷺ . وكان سيدنا عبد الله بن سلام ـ وكان من أحبار اليهود ـ يقول : « لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد » . وحينما يعد الحق أهل الكتاب إن آمنوا واتقوا بأن يكفر عنهم السيئات ويدخلهم جنات النعيم ، فسبحانه لن يكفّر عنهم سيئاتهم ويقيهم من عذاب النار فحسب ، ولكن سيمحو هذه السيئات ويدخلهم الجنة . وسبحانه هو الأعلم بهم ، ويعلم أن منهم الماديين المرتبطين بالدنيا ؛ لذلك جاء لهم بخير الإيمان فى الدنيا فقال :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ فسبحانه يمد لهم أيضاً يد الأسباب فى الدنيا ، والمؤمن هو من يرتقى فى الأخذ بالأسباب فيأخذ نعيم الدنيا والآخرة ، أما الكافر فيأخذ الأسباب دون أن يشكر الخالق عليها .

لقد أراد الحق لأهل الكتاب أن يحسنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وبصحيح الإنجيل حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن ، فهذا هو السبيل إلى تكفير السيئات بألا يدخلوا النار ، بل ويدخلون الجنة فى الآخرة .

لقد قال اليهود :

﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : ٨٠]

لقد ظنوا أن الحق سيعاقبهم فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أى شيء آخر . وكان هذا ظناً خاطئاً . إن المنهج لم يأت لينجى أناساً بذواتهم مهما فعلوا ، ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل . ومن العجيب أنهم ظنوا الظن الخاطئ ولم يقوموا بحساب الأمر بحسابه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق فى العدّ والحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة أمر أو يكذبه . ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعة يؤاخذهم فهو يقول : لك كذا وعليك كذا . لكن ساعة يرزقهم فهو يرزقهم بغير حساب .

* تبشير المنافقين :

يقول الحق سبحانه :

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٣٨]

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى من متلون فى الإيمان ، تبدو له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر. وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر . والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهى إحدى جحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين لجحره ؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ والبشارة هى الإخبار بشىء يسر سيأتى زمنه بعد . وهل المنافقون يبشرون؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يبشرون ، ولكن لله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال : أنذرهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم ـ كمنافقين ـ مستعدون لسماع الشر . ولكن الحق يقول : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهى من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة . فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائى أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقلة من وضعه كبخيل ؛ ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما :

يا حاتم هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سامٍ ورفيع وعظيم تحقيراً له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت : مرحباً بك يا قزم . هذه هي المفارقة ، كما تقول لقصير : مرحباً بك يا مارد . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك ... هذه أيضاً مفارقة . وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلِّم عليه فهذه هي السخرية والتهكم.

وهذه المفارقات إنما تأتي للأداء البلاغي للمعنى الذي يريده المتكلم ، فقوله الحق : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ معناه : أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون ، وكأنكم نافقتم لأنكم تحبون العذاب . وما دمتم قد نافقتم لأنكم تحبون العذاب ، فأنا أبشركم بأنكم ستتعذبون . والذى ينافق ألا يريد من ذلك غاية؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هي العذاب ، فقال الحق : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء ، من الممكن أن يقول له الحارس : لا . ويجعله ييأس من أن يأتي له بكوب ماء ، أما إن أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتي بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا مد السجين يده ليأخذ كوب الماء فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض . هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال : ﴿بَشِّرِ﴾ فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً يسر ، فإذا قال الحق : ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فمعنى ذلك أن الغم يأتي مركباً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالنذارة .

وعلى سبيل المثال ــ ولله المثل الأعلى ــ يقول الأب لابنه : استذكرْ يا بنى حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر فى اللعب ثم يقول الأب : يا بنى لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتي الامتحان ويذهب

الأب يوم إعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ؛ فيقول الأب لابنه : أهنئك لقد رسبت فى الامتحان ! فقوله «أهنئك» تبسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار ، ويسمع بعدها «لقد رسبت» فتعطيه الشعور بالانقباض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ﴿ بَشِّرِ ﴾ لها علاقة بالمدلول الاشتقاقى ؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ؛ فإن كان الانفعال حزناً فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهُّم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسىء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وخصت النذارة بالخبر الذى يحزن وتنقبض النفس له .

والبشارة ـ كما قلنا ـ توحى بأن هناك خبراً ساراً ، فيأتى الخبر غير سار . وكما يقول الحق فى آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنّه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ [الكهف : ٢٩]

ساعة نسمع : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ ﴾ نفهم أن برداً يأتى لهم أو رحمة تهب عليهم ، ولكن الإغاثة التى تأتى لهم هى : ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ [الكهف : ٢٩]

ويتساءل السامع أو القارئ : هل هذه إغاثة أم تعذيب؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فالماء الذى يعطى لهم كالمهل يصعّد الألم فى نفوسهم .

والعذاب ـ كما نعلم ـ يأخذ قوته من المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ذا قوة محدودة، كان العذاب محدوداً . وإن كان المعذِّب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب

العظيم هو العذاب الذى يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذَّب يتجلد، وعذاب الحق يفوق قدرة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجة تحمُّل أى إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليماً أيضاً ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلماً للمادة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبية ثم تنهار ، حينئذ يكون العذاب مهيناً .

ولأن المنافقين والكفار غارقون فى المادية آثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمادة .

* * * * *

* البشـــارة بـالـعـذاب :

﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : ٢١]

لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم ؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر فى أمد يمكن أن يؤتى فيه الفعل الذى يسر ؟ إن التبشير دائماً يكون للفعل الذى يسر ، كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة ، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يسر له المؤمن ، ويعطى الحقّ الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة والبشارة .

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجَّهاً لأبناء الذين فعلوا ذلك ؟ لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لنزول هذه الآية . إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط ، ويبشرهم الحق بالعذاب الأليم ؛ لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صواباً . فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صواباً فلهم أيضاً البشارة بالعذاب .

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضاً ، ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم ، رغم أن البشارة غالباً ما تكون إخباراً بالخير ، وعملية العذاب الأليم ليست خيراً؟ إن علينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة «أبشر» فإن النفس تتفتح لاستقبال خبر يسر ، وعندما تستعد النفس بالسرور وانبساط الأسارير إلى أن تسمع شيئاً حسناً يأتى القول : أبشر بعذاب أليم . ماذا يحدث ؟ الذى يحدث هو انقباض مفاجئ أليم ، ابتداء مطمع «فبشرهم» وانتهاء ميئس ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد ، لأن الحق لو أنذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن يقول : «فبشرهم» لكان وقوع الخبر المؤلم هيناً . لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعاً صاعقاً ، ومثال لذلك قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩]

إنهم يستغيثون فى الآخرة ، ويغاثون بالفعل ، ولكن بماذا يغيثهم الله؟ إنه يغيثهم بماء كالمهل يشوى الوجوه . إننا ساعة أن نسمع «يغاثوا» قد نظن أن هناك فرجاً قادماً ، ولكن الذى يأتى هو ماء كالمهل يشوى الوجوه . وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لأتباع القتلة الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتلة . ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكلمة «عذاب» تعنى إيلام حىّ يحس بالألم . والعذاب هو للحىّ الذى يظل متألماً ، أما القتل فهو ينهى النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذابَ أن يبقى الشخص حيًّا حتى يتألم ويشعر بالعذاب ، وقول الحق : ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يلفتنا إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦]

أى : أن الحق يديم عليهم الحياة ليديم عليهم التعذيب .

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل ، ونظرية «الحسّ» ـ كما نعرف ـ شغلت العلماء الماديين ، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ؟ منهم من قال : نحن نحسّ بالمخ . نقول لهم : لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها ، بدليل أنه عندما يأتى واحد أمام عينى ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أغلق عينى أى : أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحسّ . وبعض العلماء قال : إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكى والحركة العكسية ، ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد ؛ بدليل أنك عندما تأخذ حقنة فى العضل، فالحقنة فيها إبرة ، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد أن تنفذ الإبرة من الجلد ، وبعد ذلك لا تحس .

إذن : فمركز الإحساس فى الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ،

بدليل أن ربنا أوضح أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فهو سبحانه يبدّل لهم الجلد ليستمر الإحساس : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ ﴾ أى : صارت محترقة احتراقاً تاماً وتعطلت عن الإحساس بالألم ، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب ؛ لأنه هو الذى سيوصل للنفس الواعية فتتألم ، إذن : فالآية مسّت قضية علمية معملية ، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة فى الإحساس تقول : يا بنى آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد ، لما فهموا شيئاً . لكنه تركها لتنضج فى العقول على مهل .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ . فتكون علّة التبديل للجلود التي أحرقت بجلود جديدة كى يدوم العذاب . وينهى الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ والعزيز : هو الذى لا يُغلب ولا تقدر أن تحتاط من قوته وقدرته وحكمته . لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة ساعتين فما يضيرنى أن يحترق جلدى وتنتهى المسألة !! نقول له : لا . إن الذى يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم . فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله ، لا . هو يستعمل جبروته بعدالة .

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان ، لم ينس المقابل ؛ لكى يكون البيان للغايتين : غاية الملتزم وغاية المنحرف .

* * * * *

* اتخـاذ الدين لهواً ولعباً سبب للخلود فى النار :

يقول الحـق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٠]

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم فى الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن بـ «كن» ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أى شىء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء فهم يطلبون أوليات الوجود ، فى نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرّم عليهم خير الجنة :

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف : ٥١]

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هى اللعب ثم تأتى له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تـوجّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن توجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كى يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضـرّاً . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فهو لعب .

إذن : فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصـداً صحيحـاً لدفع ضر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ لا ؛ لأنه لو كان المقصد

صحيحاً لما حطم الطفل لُعَبَهُ . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة .

ولكن حين تُوَجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئاً وأنت توجه الطاقة إلى شىء آخر . والذى يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبى ﷺ يطلب من الأهل أن يدرّبوا الأبناء على شىء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل، ولكن خيبة البشر فى زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يعاقب ؛ لأن الحَكَم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهى الطاولة ويترك الشغل الذى ينتج له الرزق ، وليت هذا اللهو مقصور على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أن يستغل فى طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن : فاللهو طاقة معطلة ﴿ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتى من الأسباب التى خلقها الله مستجيبة لهم ، فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذى يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

[الأعراف : ٥١]

فهل يعنى قوله عز وجل : ﴿نَنسَاهُمْ﴾ أنه يتركهم لما يفعلون؟ لا ، بل تأخذهم جهنم لتشويهم ، ونسيانهم هنا هو أنه ـ سبحانه ـ لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هى المكان الذى يعد فيه الإنسان مكانه فى الآخرة ، فإن أراد مكاناً فى عليين فعليه أن يؤدى التكليف الذى يعطيه مكانه فى عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدى العمل الأقل . كأن الإنسان بعمله هو الذى يحدد مكانه فى الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازى الخلق استبداداً بهم وافتياتاً أو ظلماً ، ولكنه يجازى الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذى ينزله لنا الحق قرآناً ينذرنا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا فى الآخرة مواقع مشرِّفة .

* * * * *

* الاستهزاء بآيات الله جزاؤه جهنم :

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠]

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وبذلك يحمى الله وحده أهل الإيمان ، ويصونهم من أى تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فما دمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين ؛ لأنك إن هادنته كان أعز فى نفسك من الإيمان ، وما دمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فَلْتَحْمِ هذا الإيمان من أن يَتَهَجَّم عليه أحد ، فإن اجترأ أحد على الإيمان بشىء من النقد أو السخرية أو الرمى بالباطل .. فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون فى البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف فى وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعة يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو فى آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن عرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون فى الإيمان .. فهذا يعنى أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسبر غور الإيمان فى قلوب المسلمين . أما حين يرى الكافر مؤمناً يهب وينفر من أى حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هى إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت

فى المدينة ؛ فالحق يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ﴾ ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل فى مكة ؛ ويقول فيها الحق:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

[الأنعام : ٦٨]

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً فى البداية ، وهو الحكم الذى نزل مع الكافرين فى مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيمانى قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم : إن ولغ هؤلاء الكافرون فى الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان .

والحق سبحانه يذكر المؤمنين في سورة النساء بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو فى الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً فى المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله هو تكليف بما يطيقه الجنس البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون فى آيات الله . وقد نزل فى القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها فليغادروا المكان ، ونلحظ أن الذى نزل فى الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام : ٦٨]

ويأتى السماع : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ﴾ والمهم هو مجرد العلم سواء أكان رؤية أو سماعاً بأنهم يخوضون فى دين الله ؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : ﴿ فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ يوحى أنهم إذا ما خاضوا فى حديث غير الخوض فى آيات الله فليقعد المؤمنون معهم . وكان ذلك فى صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامى آنئذ أن يتميز بوحدته ، فلو قال لهم الحق على لسان رسوله : لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان فى ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة «يخوضون» تعطى معنى واضحاً مجسماً ؛ لأن الأصل فى الخوض أن تدخل فى مائع .. أى : سائل ، مثل الخوض فى المياه أو الطين . والقصد فى الدخول فى سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة تخوض فى مائع فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع فى المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان فى طريق رملىّ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سدّ الطريق إلا بفعل فاعل ، وأخذوا من هذا المعنى وصف الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك ، والجدال فى الباطل لا ينتهى إلى نتيجة .

إذن : «الخوض» هو الدخول فى باطل ، أو الدخول إلى ما لا ينتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء : لا تخوضوا فى مسألة الصفات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن ينتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق فى موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

[الأنعام : ٩١]

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذى أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذى أنزل من قبل التوراة فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم يخوضون فى باطلهم .

وفى موضع آخر يتكلم الحق عن الخوض :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤ ، ٦٥]

إذن : الخوض هو الدخول فى مائع ، وما دمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول فيه بالمدخول عليه فلا تتميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض بالباطل أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ .

وتأتى الكلمة التى ترهب المؤمن وترعبه : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ أى : أنكم إذا قعدتم معهم وهم يخوضون فى آيات الله تكفرون مثلهم ؛ لأنكم تسمعون الخوض فى الدين بالباطل ، ومن يرض بالكفر يكفر .

لقد أعطتنا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين ، ولا نواليهم إلا إذا والونا ؛ لأن الجلوس معهم فى أثناء الخوض فى الدين يجرئهم على منهج الله ، وعلى المؤمن أن ينهر أىَّ ساخر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عمّن ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل ؛ وفى ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا فى الدين بالباطل .

لكن لو أعرضنا عن ذلك فسيلتمس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجتراء على الدين والخوض بالباطل فى دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما

يأتى من أننا نرى من يخوض فى دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومنزلة .

وقوله الحق : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ﴾ نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هى أن يرى الإنسان فعلاً أو يسمع قولاً . فإن رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد فى الأرض فاعلم أن ذلك خوض فى دين الله بالباطل .

وقوله الحق : ﴿ فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ هو إيذان بالمقاطعة ؛ فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن فى منزل ، ويذهب إلى البقال ليشترى منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان فى يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يرونه فى مجتمعهم ، ولو رأى هؤلاء المنحرفون والموغلون فى الباطل المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شىء آخر ومجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ ولا تستبطئوا هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هى عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقى الله مسلماً فى الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ١٤١]

وقوله الحق : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ وصف للمنافقين ، ويتربص فلان بفلان . أى : أن واحداً يتحفز ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة : ٥٢]

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجىء .

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ فإن فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون : ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ، فلا بد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ واستحوذ على الشىء أى : حازه وجعله فى حيزه وملكه وسلطانه . والحق هو القائل :

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ [المجادلة : ١٩]

أى : جعلهم الشيطان فى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور من يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين . ثم يقولون للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أى : منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون

منهم الثمن .

ولنر الأداء البيانى للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ﴾ أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتى بكلمة «نصيب» أى مجرد شىء من الغلبة المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع وعمره ليراه فى الدنيا ، فيأتى له بالمسألة المقطوع بها ؛ لذلك لا يقول للمؤمن : إنك سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيراً مؤكداً لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتفه من أن تكون ثمناً للإيمان .

ويعلمنا الرسول ﷺ ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات تأتى لها الأغيار فى هذه الدنيا ، فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته الإنسان . وثمن الإيمان باقٍ ببقاء من آمنت به . إن القاعدة الإيمانية تقول : من يعملْ صالحاً يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٧]

أى : أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إفنائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من صفاته وهو الدائم أبداً . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : لن يوجد نقض لهذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد ﷺ ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : ١ ـ ٥]

قوله الحق سبحانه : ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يدل على أنا أبا لهب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله ﷺ ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عدد من صناديده، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فها هو ذا عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا . فما الذى كان يدرى محمداً ﷺ أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقل أبو لهب : قال ابن أخى : إننى سأصْلَى ناراً ذات لهب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان . لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبى لهب وزوجه أن يقولا فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل فى أبى لهب وزوجه يأتى قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح : إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض ، فسيصلى أبو لهب ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب .

* * * * *

ثــالـثـاً :

أهــل العــذاب فــى الـنــار

* السـعــى فــى الأرض فـســاداً :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣]

أول شيء فى الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أى : يرغبون فى الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قوم الله وهو غيب؟ وأول حرب لله هى محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرِّع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولى على حق الله فى التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أهُــم الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله؟ لا ؛ لأن يد الله فى ملكه أزلاً ، وستبقى أبداً وسبحانه لن يسلّمه لأحد من عباده . فعلى ماذا ـ إذن ـ يريدون الاستيلاء؟ إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما الحق سبحانه هو الـمشرِّع وحده . والتشريع ـ كما قلنا ـ هو قانون صيانة للصنعة . إذن : لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التى تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يشرّعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان ـ الذى هو منه ـ قانون صيانة نقول له : إنك تستولى على حق الله .

وكيف يحــاربون الرســول ؟

نعرف أن الرسول ﷺ له وضعان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول ﷺ كان مشهداً من مشاهدنا في يوم من الأيام ، وقد حورب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فنأخذ سلطته في التشريع ، وهي السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما ينتشر في بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدي الصلاة؟ فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب؟ فيجيب : ثلاث ركعات . نسأله : من أين أتيت بذلك ؟ ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهي لم تُذْكَر في القرآن الكريم؟ هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تُخرج الزكاة وبأي حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف في المائة في النقدين والتجارة مثلاً .

نقول له : كيف ـ إذن ـ عرفت ذلك ؟ وأيضاً كيف عرفت الحج؟ إذن : فللرسول ﷺ مهمة ، وحرب النبي تكون في ترك قول أو فعل أو تقرير له ـ عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك : هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعه وأقرّه من غيره هو حديث ، وكل فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه هو حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله ﷺ؟ وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التي وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة؟ ؛ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدّعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله ﷺ قد وضع القواعد لغربلة الأحاديث فقال :

« مَنْ كَـذَبَ عليَّ مُتعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[1] .

وها هو ذا البخارى ينقل عن المعاصرين لرسول الله ﷺ والذين قابلوه ، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنها مظنّة المقابلة وتحرى كل منهما الدقة الفائقة . وأى شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفينى أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت: كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله؟ وكيف يمكن أن يؤدى الأذان للصلاة؟ وكيف يؤدى الصلاة؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : ٧]

وهذا تفويض من الله فى أن يكون لمحمد ﷺ تشريع .

وكذلك الاجتراءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبى ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ﴾ أى : يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يقتّلوا أو يصلّبوا ، وهذا التفعيل فى قوله : ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ جاء للشدة والتقوية ؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيمانى العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع فى هذا الأمر ، كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب فى أن يرفع الدعوى ، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾ . وهل «أو» هنا تخييرية ، أو أنّ هنا ـ كما يقال ـ « لفّاً ونشراً » ؟ واللف هو الطىّ . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرّقه .

فما اللف ، وما النشر ـ إذن؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قَلْبِى وجَفْنِى واللِّسَانُ وخَالِقِى

---

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن على كرم الله وجهه .

لقد ذُكر مُتعدّد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ؛ فجمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه ، فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبى وجَفْنى واللسانُ وخالقى ... راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

والحق سبحانه يقول : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص : ٧٣]

فقوله : ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ راجع إلى الليل ، وقوله : ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ راجع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد ـ كما نعلم ـ له صُور متعددة ، فالفساد فى الإنسان قد يعنى قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب فى نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكأن كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزيع .

ويقول الحق : ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ ، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا يتأتى إلا لثابت مُستقر ، والإبعاد لا يتأتى إلا لمتمكّن . إذن : فقبل أن ينفى لا بد أن يكون له ثبوت وتمكُّن فى موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن، أو الوطن ، أو المكان الذى يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى : له حركة فى دائرته ، إلا أنه يأوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سمّى سكناً ؛ أى : يسكن فيه من بعد تحركه فى مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجه من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نحكم عليه بالنفى؟ قد يقول قائل : أنت

إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساده !

لا ؛ لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يخيفهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلاناً وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منع لإفساد الفاسد.

وحين يقول سبحانه : ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ نعرف أن كلمة «الأرض» لها مدلول ونسمى الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوّ الأرض منها صار جو الأرض جزءاً من الأرض . ولذلك قلنا فى المقدسات المكانية : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصلى فى الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصلى متجهاً إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب فى إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه . إذن : فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضاً له قدسية ؛ فإن بنينا كذا طابقاً فهى تصلح أيضاً كمسعى .

إذن : فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يُحرمون ـ قبل أن يوجد طيارون مسلمون ـ أن يحوِّم فى جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم محرَّم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . وما دام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضاً ممنوع من الطيران فى جوّ الكعبة .

لأن جَوّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوى يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . وما دام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن :

لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذى لا يزال فى طور النظرية حقيقة فى حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق ، وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك ـ على سبيل المثال ـ قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٣٤]

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما فى الرّحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهى لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضى مدّة زمنية ، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم مَن قال : إن الحق يقصد بـ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ ذكراً أو أنثى فحسب؟ وهل لمدلولها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما فى الرحم سيكون من بعد إنساناً طويلاً أو قصيراً ؛ ذكياً أو غبياً ؛ شقيّاً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غضوباً . فلماذا نحصر «ما» فى مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله فى بطنها؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا فى بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل فى العالم لطبيب واحد؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما فى كل الأرحام .

إذن : فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما نفهم فهماً خطأ أن الحقيقة القرآنية فى قوله الحق : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾ مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر : ١٩]

ويُخطئ البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هى أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت فى عصرنا مشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن : هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية. والفهم الصواب فى مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ ؛ أننا كلما وقفنا فى مكان نجد أرضاً ، أى : أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن : فسبحانه قد مَـدَّ الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار فى أى اتجاه ؛ يجد أرضاً ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ فى فهم مدلول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهى ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطئ ، إنهما لا تتعارضان، فالقائل هو الخالق سبحانه ، ولهذا عرفنا أخيراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوى يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم : ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام : ١١]

وهو سبحانه علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوى . إذن : فالإنسان إنما يمشى فى الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوى فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينفون منها وإلى أى أرض؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى فى اللغة نعرف ما يسمي النفى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شيء حسى ؛ فعندما نأخذ الماء من البئر ننزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له «رِشاء» وهو الحبل الذى ننزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه.

فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطراق الماء إلى تمام حافة الدلو؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلاً من الماء يتساقط من حوافى الدلو ، وهذا الماء المتساقط يسمى «النِّفى» ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطراق الماء .

إن الماء ـ كما نعلم ـ له استطراق دقيق إلى الدرجة التى جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن «النِّـفْى» تؤخذ معان كثيرة ، فهناك «النفاية» وهى الشيء الزائد . إذن : كيف يكون النفى من الأرض؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص؟ أى : الأرض التى حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفى يكون لأى أرض أخرى ، وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ [الإسراء : ١٠٤]

هم بلا جدال يسكنون فى الأرض . وجاء هذا القول لمعنىً مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تحييز مكان فى الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم فى الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقرون فى مكان أبداً . وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا ﴾ [الأعراف : ١٦٨]

فليس لهم وطن خاص . وتمت بَعْثَرتُهم فى كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذى حدث فى الكون . فهل وُجِدَ لبنى إسرائيل استقرار فى أى وطن؟ لا . وحتى الوطن الذى أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . وما زال اليهود بطبيعتهم شتاتاً فى أنحاء الأرض . ولهم فى كل وطن حىّ خاص بهم . وتحتفظ كل جماعة منهم فى أى بلد بذاتيتهم ولا يذوبون فى غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤]

وحين يأتى بهم الحق فى الجولة الآخرة سيأتون لفيفاً أى : مجتمعين ؛ لأن الأُمّة المؤمنة حين يقوّيها الله لتضرب هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مجتمعين . وكأن الله قد أراد أن يكون هذا «الوطن القومى» حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ؛ لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ولكن كيف يكون النفى من الأرض؟ على سبيل المثال حين يرى الله تَحييز مكان فهو يقول :

﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة : ٢١]

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف : ١١٠]

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حُكم ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ والنفى هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد فى الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام : قتل ، وقتل وأخذ مال ، وأخذ مال فقط ، وترويع . وقد زاد رسول الله ﷺ شيئاً وفعله فى سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد فى أمر الإفساد . وكان على العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفى حصل فى الإسلام كان نفى رسول الله ﷺ للحَكَم بن أبى العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم ـ والعياذ بالله ـ كان يُقلّد مشية النبىّ باستهزاء ، وكان النبى ﷺ إذا مشى تكفّأ تكفؤاً كأنما يَتَحدّر من صَبَبٍ . فقد كانت مشية النبى مشية خاصة . وعلم رسول الله ﷺ أن الحَكَم يقلد مِشيته فى استهزاء والتفت النبى ـ ذات مرة ـ فجأة ، فوجد الحكم يقلده فى مِشيته فنفاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم فى الطائف طوال حياة رسول الله ﷺ . فلما

جاءت خلافة أبى بكر الصديق ذهب أهل الحَكَم إلى أبى بكر ، فقال :

ـ ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضى الله عنه حيياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله ﷺ تحمل شبهة الإفراج عنه . ويفرج عنه عثمان ابن عفان رضى الله عنه .

وأثناء حياة الحَكَم فى الطائف كان يربى بعض شُويهات وبعض غُنيمات وكان يرعاها عند جبيلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضى الله عنه أنجب يزيد الذى تولّى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم .

وكان خالد بن يزيد الذى ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً فى الكيمياء وله أخ اسمه عبد الله ، وكان لعبد الله جياد يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبد الملك ابن مروان جياد أيضاً ، وجرت جياد عبد الله مع جياد ابن عبد الملك فى مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبد الله لتسبق ... حدث خلاف بين عبد الله وابن عبد الملك ؛ فنهر ابنُ عبد الملك عبد الله ، فذهب عبد الله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبد الملك بن مروان ، وقال له :

ـ لقد حدث من ابنك لأخى كذا وكذا ، وكان عبد الملك فصيحاً فى العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً . وربّى أولاده على ألا يلحنوا فى اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن .

فلما دخل خالد إلى عبد الملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبد الملك لخالد : أتكلمنى فى عبد الله وقد دخل علىّ آنفاً فلم يخل لسانه من اللحن؟

وقال خالد ـ معرضاً بالوليد : والله يا عبدالملك لقد أعجبتنى فصاحة الوليد . فقال عبد الملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبد الملك : اسكت يا هذا فلست فى العير ولا فى النفير .

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة ، فالعير هى التى كانت مع أبى سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله ﷺ ثم نجا بها أبو سفيان . والنفير هم الجماعة التى استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبى سفيان والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جدّ خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنفير منى ، جدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة صاحب النفير ، ولكن لو قلت : غنيمات وشويهات وجبيلات وذكرت الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن : فالنفى كان أول عقاب أنزله الرسول ﷺ ، فهل ما فعله «الحَكَم» يُعتبر فساداً؟ ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذى يمس رسول الله ﷺ . وكان الحَكَم يستهزئ بمشية رسول الله ﷺ .

وقد يقول مُشرّع ما : إن السجن يقوم مقام النفى . ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المُفسد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة ؛ بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويتبع الحق هذا بقوله : ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين فى الأرض المحاربين لله ورسوله وهو : ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ وهذه العقوبات خزى لهم .

إن كلمة «خزى» ترد فى اللغة بمعنيين : مرة بمعنى الفضيحة ، «خَزِىَ ، يَخْزَى ، خِزياً» ، أى : انفضح ، ومرة ثانية هى «خزى ، يخزى ، خزاية وخَزى» بمعنى استحى . والمعنيان يلتقيان ، فما دام قد افتضح أمر عبد ؛ فهو

يستحى مما فعل . وتلك الأفعال خزى ، كالذى قطع طريقاً على أناس آمنين ، ونقول لمثل صاحب هذا الفعل : إن قوّتك ليست ذاتية بل قوّة اختلاسية ؛ فلو كانت قوتك ذاتية لاستطعت أن تتأبّى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت على العُزل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفى هذا خزى لك . خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب . وخزيك الآن هو مقدمة لعذاب آخر فى الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وكل جزاء فى الدنيا إنما يأتى على قدر طاقات البشر فى العقاب ، ولكن ماذا إذا وكلوا إلى طاقة الطاقات ؟ ها هى ذى عدالة الحق تتجلّى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرّحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى فى الأرض فساد كل من ارتكب ذنباً لأنه يئس من رحمة الله فتشتد ضراوته وقسوته .

وسبحانه فتح باب التوبة لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لصار المسرف فاقداً . وهب أن واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك حُكْم ، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

* * * * *

* التولّى عند الزحف :

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٦]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولى الدبر هرباً وفراراً من لقاء الأعداء . أما الذى يولى الدبر احتيالاً ولإيهام العدو بأنه ينسحب وفى ذات اللحظة يعاود الكرّة على العدو مطوّقاً له ، فهذا هو المقاتل الحق والصادق فى إيمانه الذى يمكر بالعدو . وكذلك من يولى الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيع منه حياته بلا ثمن ، فهذا أيضاً من أعمل فكره لينزل بالعدو الخسارة ؛ لأن المؤمن يحرص دائماً على أن يكون موته بمقابل ، فإذا ما وعده الله بالجنة . ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة ؟ وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كافرين ، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوةً تغلب عشرة ، مصداقاً لقوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾

[الأنفال : ٦٥]

ولكن علم الله أن بالمؤمنين ضعفاً فجعل مقابل المؤمن فى المعركة اثنين من الكفار ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

[الأنفال : ٦٦]

ولذلك فإننا نجد الذى يفر أمام ثلاثة من الأعداء لا يسمى فاراً فى الحكم

الشرعى . لكن من يفر من مواجهة اثنين ، يعد فاراً ؛ لأن الحق تعالى قال قبل أن يوجد فينا الضعف :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : ٦٥]

أى : أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين . فإن كان المقابل أقل من عشرة كافرين ، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت رخيص الثمن . ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب المؤمنين ؛ لذلك قال :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : ٦٦]

وهكذا انتقلت النسبة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة ، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فمن رأى نفسه فى مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى : عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من نيلهم منك بلا ثمن .

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال : ١٦]

وعرفنا أن المتحرّف للقتال هو صاحب الحيلة ، ونقول فى ألفاظنا التى تجرى على ألسنتنا فى حياتنا اليومية : « فلان حريف » أى : لا يغلبه أمر ويحتال عليه ، وهكذا يكون المتحرف فى القتال الذى يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام ، وهى فى الواقع مقدمات للنصر ، وقوله سبحانه : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا ﴾ مأخوذ من «الحيز» ، وهو المكان الذى يشغله الجسم ، وكل واحد منا له «حيز» فى مكان يشغله ، أى : أن كل واحد منا متحيز ، والحيز هو الظرف المكانى الذى يسع الإنسان منا واسمه ظرف مكان ، وكل واحد من المخاطبين له مكان وهو متحيز بطبيعته ، وجاءت كلمة «متحيز» فى هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن يأخذ لنفسه حيزاً جيداً يمكنه من إصابة الهدف ، وكذلك تفيد ضرورة انضمام المقاتل دائماً إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو . ومن لا يفعل ذلك فعليه

أن يتلقى العقاب من الله ، وقد بيّنه الله تعالى فى قوله سبحانه :

﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ١٦]

و ﴿ بَاءَ ﴾ تعنى : رجع ، والتعبير الأدائى فى القرآن الكريم مناسب لما فعلوه ؛ لأن من يعطى الأعداء دبره فهو الراجع عن الزحف والقتال . لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة فى القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين ، فهذا له وضع مختلف تماماً ، إنه ناصر لدين الله ، عكس المنسحب الفارّ الذى يصحبه فى انسحابه غضب من الله ، والغضب من الله ـ كما نعلم ـ هو سبب من أسباب إنزال العذاب ، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٦]

والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ، ونعلم أن الواحد منا حين يرغب فى الراحة فهو يأوى إلى المكان الذى يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء .

والفارٌ من مواجهة العدو فى معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار ، بل وترحب به النار ويدور حوار بينها وبين الحق عز وجل يوم القيامة توضحه الآية الكريمة :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠]

ويُثْبتُ الحق فى قرآنه الكريم أن النار تغتاظُ من الكافرين لأنها جندٌ من جنود الله تعالى ومسخّرة لتنفيذ حكم الله ، فمن خالف المنهج فى الدنيا تتلقاه النار بتغيظ وزفير ، ويسمع الكافرون تغيظها حين تراهم من بعد ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٢]

وحين تكون النار هى المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

كأن الراجع من الزحف والفارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أن يُقتل ، سيذهب إلى شيء شر من القتل .

* جـزاء مـن قتـل مـؤمـناً متـعمـداً :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣]

والقتل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذى لا يدرى به القاتل إلا بعد أن يقع . وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم ، وليس له كفارة أبداً. هكذا يبشّع الحق لنا جريمة القتل العمد ؛ لأن التعمد يعنى أن القاتل قد عاش فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال فى القانون « قتل عمد مع سبق الإصرار » أى : أن القاتل قد عاش القتل فى تخيله ثم فعله ، وكان المفروض فى الفترة التى يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الدينى ، وهذا يعنى أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة ، وما دام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فلو جاء الله فى باله لتراجع ، وما دام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ وقالوا فى سبب هذه الآية: إن واحداً اسمه مِقْيَس بن ضبابة كان له أخ اسمه هشام ، فوجد أخاه مقتولاً فى بنى النجار ، وهم قوم من الأنصار بالمدينة . فلما وجد هشاماً قتيلاً ذهب مِقْيس إلى سيدنا رسول الله ﷺ وأخبره بالخبر ، فأرسل معه رجلاً من بنى فهر وكتب إليهم أن يدفعوا إلى مِقْيَس قاتل أخيه ، فقال بنو النجار : والله ما نعلم له قاتلاً، ولكننا نؤدى الدية فأعطوه مائة من الإبل ، ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا مِقْيَس على الفِهرى فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتداً وجعل ينشد:

قَـتَلتُ به فِـهْـراً وحـمـلتُ عـقلهُ ... سـراة بنى النجّـار أرباب فـارعِ

حـلـلـتُ بـه وتـرى وأدركـت ثـورتـى ... وكـنـتُ إلـى الأوثـانِ أول راجـعِ

فلما بلغ سيدنا رسول الله ﷺ ذلك أهدر دمه . ومعنى «أهدِر دمه» : أباح دمه ، أى : أن من يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الفتح فوجد «مقيس» متعلقاً

بأستار الكعبة ليحتمى بها ، فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ .

وهنا نجد أكثر من مرحلة فى العذاب : جزاء جهنم ، خلود فى النار ، غضب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكأن جهنم ليست كل العذاب ؛ ففيه عذاب وفيه خلود فى النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستعيذ بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض الناس عن أن هناك ألواناً متعددة من العذاب . وفى الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شىء ، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث فى الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشر من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل لهذا القاتل توبة ؟ واختلف العلماء فى ذلك ، فعالم يقول : لا توبة لمثل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك توبة . وجاء سيدنا ابن العباس وجلس فى جماعة وجاء واحد وسأله : أللقاتل عمداً توبة ؟ قال ابن العباس : لا . وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن العباس : أللقاتل عمداً توبة ؟ فقال ابن العباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم ؟!

قال ابن العباس : سائلى أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سائلى ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول أرهبته والثانى لم أقَنِّطه من رحمة ربه .

وكيف فرّق ابن العباس بين الحالتين ؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التى يبسطها الله على المفتى . فساعة يوجد النبى ﷺ فى صحابته يسأله واحد قائلاً : « أى الإسلام خير؟ » فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم .. ويسأله عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أى الأعمال أفضل ؟ فيقول صلوات الله

وسلامه عليه : « الصلاة على ميقاتها . قلت : ثم ماذا يا رسول الله؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك » .

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكر حول نصها ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد .. بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهى؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لما وصف الحق المكث فى النار مرة بقوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [آل عمران : ٨٨]

ومرة أخرى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [النساء : ١٦٩]

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد فى «أبداً» فيه ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . وإذا اتحد القولان فى أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن اللفظ «أبداً» لم يأت بشىء زائد . والقرآن كلام الله ، وكلام الله منزه عن العبث أو التكرار . إذن : لا بد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طولاً لا ينتهى ، وعلى ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى. ثم إن كلمة «خالدين» حين وردت فى القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى خلود النار :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : ١٠٥ ـ ١٠٧]

فكأن الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ والاستثناء لا بد له من زمن ، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأبيد ، ولكن الخلود هو زمن طويل ، وكذلك يقول فى خلود الجنة :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨]

وقوله الحق : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ تفيد أن الخلود عندهم ينتهى . ما دام هناك استثناء ؛ فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأبيداً .

وعلينا أن نتناول الآيات بهذه الروح ، وفى هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد فى العصر العباسى هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المنتسبين إلى العلم : « كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد » وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلو على صغائر الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأى ، ويحكى عنه قيس بن أنس هذه الحكاية : كنت فى مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول : « يؤتى بى يوم القيامة فيقال لى : لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له . قال : فقرأت الآية : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذى جاءه أو الرؤيا التى أراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفتى بألا توبة لقاتل العمد ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة ؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب فى ذلك .

نقول ذلك لنعرف أنَّ الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذى علم عليماً .. ولكنَّ عمراً ذكر ما جاء فى قوله الحق : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ . وقال قيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين سناً ، فقلت له : لو كنت معك لقلت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨]

قال قيس : فو الله ما رد علىَّ عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تفيد هذه؟ تفيد ألا نأخذ كلمة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ بمعنى التأبيد الذى لا نهاية له ؛ لأن الله قد استثنى من الخلود فى آية أخرى .

* مصير المكذبين والمستكبرين :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾
[الأعراف : ٣٦]

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا فى حسابهم أن يكون لهم نصيب فى الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾
[الشورى : ٢٠]

وهَبْ أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ فى الدنيا ، فلماذا نسى أنها موقوتة العمر؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن فى الآخرة؟ عليك أن تعلم أنك فى هذه الدنيا، خليفة فى الأرض ، وما دمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلا بد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شيء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هى لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية فى الكون هى الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذى يستكبر عن آيات الله هو من دخل فى صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان فى الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان فى الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾
[الأعراف : ٣٦]

وأصحاب النار ، يعنى : أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهى التى تتساءل : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ؟

ويقول سبحانه :

﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر «كن» سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذى يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقى كله فى الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التى سبقت هو الذى قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التى سبقت كانت أسوة فى الضلال للأمم التى لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنوهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان يغريه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان فى السجن ألا يلعن الأول الثانى ؟

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾

[الأعراف : ٣٨]

فإذا قلت الأخرى أى : التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ ﴾ ، أى : أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا ﴾ وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا ﴾ .

كيف يتأتّى هذا؟ كان القياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يُخاطَبوا ؛ ولأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا ﴾ فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون هذا لربنا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضِّعْف معناه « شىء مساوٍ لمثله » ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً؛ لأنكم كثّرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق فى الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .

وماذا تقول أولاهم لأخراهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٩]

أى : ما دمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ومعلوم أن التذوق فى الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب؟ لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، والحق حين يرى شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو فى الجسم حساسية الذوق كالتى فى اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

[النحل : ١١٢]

هذه هى الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد . ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعى فى التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلُّف ولا تصنُّع ، وفى السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعى ، وهذا هو الخطر الذى يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات . ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ ﴾

[الأعراف : ٤٠]

والحق يريد أن يعطى حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليُعرف بجريمته، وهى جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأىّ إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عُرف بين قومه بأمانته ، هذا الإنسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً ﷺ لم يكن له

من الجاه ولا السلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١]

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يُكذِّب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له أبواب السماء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾

[الأعراف : ٤٠]

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء ... إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى. أما المكذبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علّق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ .

و ﴿ سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ هو ثقب الإبرة ، أى : الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سَمِّ الخياط ، فهل يستطيع؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل بسم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال

المركب ، إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولو أنَّ ما بى مِنْ جَوىً وصَبَابةٍ عَلَى جَمَلٍ لم يَدْخُلِ النارَ كافرُ

لأن الجوى والصبابة التى يعانى منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا سبحانه : إن دخل الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٤٠]

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .

ويقول الحق عز وجل :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾

[الأعراف : ٤١]

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى : أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦]

إذن : الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : ٢٩]

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .. وجهنم مأخوذة من الجهومة ، وهى الشىء المخوف العابس الكريه الوجه .

* جـزاء اكتـناز الـذهب والفـضـة :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤]

وساعة تسمع كلمة ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ تعرف أن البشارة عادة تكون فى خبر سار ، وإن جاءت فى خبر محزن تكون تهكماً ، فالإنسان الذى هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً ، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه ؛ لأنه لا يخشى الله فيهم ، هذا الظالم يؤتى به يوم القيامة ويعذّب أشد العذاب ، ويقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩]

وبطبيعة الموقف فى النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً ، ولكن قول ملائكة النار : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ، هو تهكم شديد ، وهو فى ذلك كقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف : ٢٩]

وهم ساعةَ يسمعون كلمة ﴿ يُغَاثُوا ﴾ يفرحون ؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيغاثون ، وهذا خبر سار بالنسبة لهم ، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوى وجوههم ، فهل هذه إغاثة؟ إنه تهكم عليهم وزيادة فى عذابهم، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذى سيتعرضون له ، ويبين لنا خبر المغيب عنّا فى الآخرة بصورة مُحَسّة لنا فيقول :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٥]

نحن نعلم أن النار لا تُحمى إلا للمعادن ، فإن كان ما كنزوه أوراق نقد فكيف يُحمَى عليها؟ وإن كان ما كنزوه معادن فهى صالحة لأنْ تُكْوَى بها أجسادهم،

أما الورق فكيف يتم ذلك؟ ونقول : إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المُحْمَى عليه مُحمىً ، أو يحوِّلها إلى ذهب وفضة ؛ وتكوى بها نواحٍ متعددة من أجسادهم ، والكية هى أن تأتى بمعدن ساخن وتلصقه بالجلد فيحرقه ويترك أثراً .

وحين مات أحد الصحابة فى عهد الرسول ﷺ وبحثوا فى ثيابه فوجدوا فيها ديناراً ، قال الرسول ﷺ : « هذه كَيَّة من النار » ؛ لأن صاحبه كان حريصاً على أن يكنزه ، كما وجدوا مع صحابى آخر دينارين كنزهما ، فقال رسول الله ﷺ « هاتان كَيَّتان » [1] .

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة ، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعَدُّ كنزاً ، وإلا لو قلنا : إنَّ الإنسان إذا أبقى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كنزاً ، لو قلنا ذلك لكنا قد أخرجنا آيات الميراث فى القرآن الكريم عن معناها ؛ لأن آيات الميراث جاءت لتورث ما عند المتوفى . والمال المورَّث المفترض فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله ، لذلك لا يعتبر كنزاً .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ، لماذا خَصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب ؟ لأن كل جارحة من هذه الجوارح لها مدخل فى عدم إنفاق المال فى سبيل الله . كيف ؟ مثلاً : تجدون الوجه هو أداة

---

(1) عن أبى أمامة قال : توفى رجل من أهل الصُّفَّة فوجد فى مئزره دينار ، فقال رسول الله ﷺ : كية . ثم قال : توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران ، فقال رسول الله ﷺ : كيتان . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٢/٥، ٢٥٣) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٤٠/١٠) : رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب . وقد وثق . وهذا الحديث ونحوه رواه أحمد عن عدة من الصحابة .

وقد يقول قائل : وما دينار أو ديناران حتى يكوى بهما بالنار؟ والجواب : إن هذا رجل من أهل الصُّفَّة أى : من الفقراء المعدمين الملازمين لمسجد رسول الله ﷺ ويأكل من صدقات المسلمين ، بينما هو يكتنز الذهب ولو ديناراً فى طيات ثيابه فكأنه أخذ حق غيره وحرم مجتمع المسلمين مما يكتنزه ومن جهده فى العمل ، فلو بهذا الدينار أتى بقدوم واحتطب كما فعل رسول الله ﷺ مع غيره لكان أنفع لنفسه ولأهله ولغيرهم ؛ ولهذا استحق الوعيد .

المواجهة ، وإذا رأيت إنساناً فقيراً متجهاً إليك ليطلب صدقة ، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة ، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤدى حق الله أن تشيح بوجهك عنه ، أو تعبس ويظهر على وجهك الغضب ، فإن هذا الفقير يحسُّ بالمهانة والذلة ؛ لأن الغنى قد تركه وابتعد عنه ، فإذا لم تنفع إشاحة الوجه واستمر الفقير فى تقدمه من الغنىّ ، فإنه يعرض عنه بأن يدير له جنبه ليحسَّ بعدم الرضا ، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطى له ظهره .

إذن : فالجوارح الثلاث قد تشترك فى منع الإنفاق فى سبيل الله ، وهى الوجه الذى أداره بعيداً ، ثم أعطاه جانبه ، ثم أعطاه ظهره . هذه هى الجوارح الثلاث التى تشترك فى منع حق الله عن الفقير ، ولذلك لابد أن تُعذَّب فَتُكْوى الجباه والجنوب والظهور .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أى : هذا ما منعتم فيه حق الله ، فإن كنز الإنسان مالاً كثيراً فسيكون عذابه أشد ممن كنز مالاً قليلاً ؛ لأن الكَىَّ سيكون بمساحة كبيرة ، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة . ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنز بكمية ما كنز ؛ لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أى : أن عذابكم فى الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال ، فالمال الذى تفرحون بكنزه فى الدنيا كان يجب أن يكون سبباً فى حزنكم؛ لأنكم تكتنزون عذاباً لأنفسكم يوم القيامة ، ومهما أعطاكم كنز المال من تفاخر وغرور فى الحياة الدنيا ، فسوف يقابله فى الآخرة عذابٌ ، كُلٌّ على قدر ما كنز .

* * * * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١

* في هذا الكتاب *

أولاً: النار حق

* رؤية الجحيم
* الزحزحة عن النار

ثانياً: أهل الخالدين في النار

* ناس خلقوا للنار
* دركات النار وأصحابها
* الكافرون والظالمون
* تبديل جلود الكافرين فى النار
* جزاء الكافرين النار
* عدم قبول الفداء ممن كفر
* تبشير المنافقين
* البشارة بالعذاب
* اتخاذ الدين لهواً ولعباً سبب للخلود فى النار
* الاستهزاء بآيات الله جزاؤه جهنم

ثالثاً: أهل العذاب في النار

* السعى فى الأرض فساداً
* التولى عند الزحف
* جزاء منْ قتل مؤمناً متعمداً
* مصير المكذبين والمستكبرين
* جزاء اكتناز الذهب والفضة

يطلب من

دار الروضة

للنشر والتوزيع

ميدان الأوبرا - سور الأزبكية - القاهرة ص.ب: ٢٢٢٧ بريد: ١١٥١١

هاتف ٥٩١٣٤٢٤